ملامح العصر

مقالات

محمد ناصر صلاح

08
S

طبع بدعم من
وزارة الثقافة
عمان - الأردن

عمّان عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٢

اهداءات ٢٠٠٣

اللجنة الوطنية العليا لاعلان عمان

عاصمة الثقافة العربية

الأردن

ملامح العصر

ملامح العصر

مقالات

محمد ناصر صلاح

طبع بدعم من
وزارة الثقافة
عمان - الأردن

● ملامح العصر

● محمد ناصر صلاح

● الطبعة الأولى. عمان/ ٢٠٠١

● رقم الايداع: ٧٦٤/ ٤/ ٢٠٠١

● رقم الاجازة: ٧٦٩/ ٤/ ٢٠٠١

● رقم التصنيف: ٣٠٦ صلا

● نشر بدعم من وزارة الثقافة/ عمان

الآراء الـواردة في هـذا الكتـاب لا تعبر بـالضرورة عـن رأي الجهـة الداعمة.

FEATURES OF AGE

ARTICLES

MOHAMMAD NASER SALAH

مقدمة

لا يمكن أن تقف حدود التغير على أطراف التسلسل الرقمي، العشرية، أو غير العشرية، بل إن التغير مسألة نوعية محضة، حتى لو كان للكم ما تقوله في النوع. لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن نرد التغير إلى الأصفار التي يختتم بها رقم ما خاناته الواقعة إلى اليمين.

إن ما كان يحتشد، في هوامش السنين السابقة، سوف يحتل مكانه كمتنٍ للصفحات المقبلة، وما كان ينظر إليه كظواهر غريبة، أو غير مألوفة، أو غير شائعة، سوف يفرض نفسه لا كظواهر معروفة ومألوفة وشائعةٍ فقط، بل كأنماطٍ سيادية أيضاً.

وسوف يكون القديم نقطة البدء. وكما قال أحد الفلاسفة، إن الجديد يأتي دائماً متستراً بالقديم. لسوف تبحث هذه النماذج الجديدة، عن أنسب النماذج القديمة، ولو على نطاق الشكل فقط، لتدخل مرتديةً زيها. وذلك توخياً لتأصيل نفسها، كأنماطٍ طبيعيةٍ وحقيقيةٍ، بل ولتزعم وترد، الأصالة لنفسها، ولتبعد أي اتهامٍ لها بكونها نتاج اختراعٍ أو ابتداعٍ ما.

وفوق ذلك لتمسح الأصالة، عن النماذج المغايرة، وتتهمها بأنها هي التي تشكل انحرافاً، عن ذلك الأصل، وتطالبها بالخضوع لما قد صنفته باعتباره "الأصل الحقيقي"، وتطالب بحقها في أن ترث التركة

الحضارية، السابقة والراهنة، والمقبلة .. المطلق يعود، من جديد ليحتل الصدارة.

ولن يكون هذا الجديد واحداً. فما كان، لم يكن هامشاً موحداً، وإن كانت هناك أكثر من دعوة لتوحيده. بل سوف يكون أنماطاً متداخلةً، ومتحالفةً، ومتصارعةً. وكلٌّ منها ينسب لنفسه الحقيقة المطلقة، وينسب لمن عداه الضلال المطلق.

ومن يبحث عن نهاية سعيدة، لن يشهدها. سوف تكون، في هذا القرن الذي يعيش خفقاته الأولى، لحظات فرحٍ. لكنها سوف تكون لحظات، ذلك أنّ الصراع التناحري هو سمة القرن الجديد، أولاً وآخراً.

وإذا ما أردنا أن نفهم، علينا أن نقرأ بعيني الآتي، لا بعيني الراهن. فما يبدو غير هام اليوم، سوف يكون هاماً جداً غداً، وما يعجز عن اجتذاب العقول حالياً، سوف يُعجز هذه العقول لاحقاً.

ولا ينسب هذا الاستقراء لنفسه الحياد،بل إنه متحيزٌ كل التحيز، فالحق انحيازٌ والخير انحيازٌ، والفضيلة انحيازٌ .. وأول انحياز للإنسان هو العقل. ولا يعتبر هذا النموذج الفكري نفسه خارج القرن، وخارج الدراسة، بل يقدّم نفسه باعتباره إحدى الظواهر، والمدارس

المتصارعة .. ومن موقعه هذا، يقدم رؤيته.

إن وقوع ثلاثة أصفار إلى يمين رقم السنة الألفية، لا يمكن أن يؤدي إلى قدوم سكان الكواكب الأخرى إلى كوكبنا، وإن قال أولئك الناس ذلك. إن مثل هذه الظاهرة، لا يمكن استيعابها، إلا من خلال تراكم التطورات العلمية والتقنية، لدينا ولديهم، في القرنين السابقين، وما أفضت إليه من ارهاصات، مثل اطلاق الأقمار الصناعية، ومشاهدة الأطباق الطائرة.

ولا شك بأن من ابرز عناصر الألفية الثالثة، في قرنها الأول، وقد لا تجود بأكثر منه، هو عودة المفاهيم الدينية، لتحتلّ الصدارة. وأبرز ما يمكن ملاحظته، هو ظهور أديانٍ جديدةٍ، أو تفاسير جديدة لأديان قديمة. المسألة ليست المساجلة لصالح فريقٍ ضد آخر، بل تبيان لمنحيٍ جوهريٍ، هو صراع الحياة ضد الموت كخط أساسي ينظم المفاهيم، في هذا القرن الجديد الذي يشكل حلقة بداية الألفية الثالثة، وقد يشكل حلقة ختامها أيضاً.

أما التساؤل عن : كيف سيكون الانتظام الحضاري لهذه الظواهر؟ ما هي الأطر النظامية لهذه التوجهات الحضارية ؟ فهو أمر يخرج عن نطاق هذه الدراسة ولا شك بأنه يتطلب بحثاً من نوع آخر.

عالم الحلم

في نفس كل شابٍ أو فتاةٍ.. رجلٍ أو امرأةٍ.. حلمٌ.. وربّما أكثر.. أمنيةٌ.. أو مجموعةٌ من الأمنيات.. المال.. الشهرة.. التنقل بين عواصم العالم.. إرتداء أكثر الملابس أناقة.. سيارة.. شقة.. تكوين الذات.. بناء المستقبل.وهناك من يعيش أحلاماً أكثر بساطة.. الحياة المستقلة.. التخرج.. الزواج.. بل حتى العمل.. مجرّد العمل، أصبح في أحيانٍ كثيرةٍ، حلماً.. وهناك من يحلم لوطنه وأمته.. بل هناك من يحلم للعالم كله.. وهناك ما يمكن أن نسميه الحلم الجمعي.. أو حلم الأمة لنفسها..

الحلم هو المثال الذي نطمح إلى تشكيل واقعنا وفقه.. العلاقة ما بين الإنسان وواقعه علاقةٌ شائكةٌ.. قليلون جداً هم الذين يعيشون في توافقٍ كاملٍ مع واقعهم، بحيث لا نجد لديهم ما يشكون منه أو يطلبون تغييره.. قليلون جداً، هم الذين لا يحملون في صدورهم أملاً، يتمنون تحققه.. وربما يقول بعضنا أن مثل أولئك الناس غير موجودين، على الإطلاق..

هذا النزوع نحو طموحٍ معينٍ قد يبدو سوء تكيفٍ مع الواقع.. إلا أنه في حقيقة الأمر يشكل حالةً إيجابيةً جداً.. والفارق بين حالتي التكيف السلبية والايجابية، هو أن الأولى فيهما لا يشكل التمنى فيها

سوى شكلاً، من أشكال التذمّر، والسخط.. وربّما العيش في أوهام.. حالةٍ من الإنشطار، ما بين واقعٍ معاشٍ، وما بين خيالٍ لا يمتّ إليه بصلةٍ.. في حين أن الحالة الثانية، هي حالة الطموح إلى مثالٍ ما.. ومعنى هذا أن هناك واقعاً غير مرضٍ، وفي المقابل، هناك تحركٌ باتجاه تغيير، ما هو غير مرضٍ فيه.. إنه إبداع الفرد لواقعٍ، يتصف بما يراه من صفاتٍ مثاليةٍ..

إنّ الحلم أمرٌ ضروريٌ جداً في حياتنا.. بطبيعة الحال، فإن هناك من سوف يجادل بأنّ الحلم ما هو إلا وهمٌ رومانسيٌ، يضفي على الواقع جماليةً وهميةً.. إلا أن هذا البعض الذي يرفض الحلم، تحت شعار الواقعيّة، لا تخرج حياته عن كونها انسياقاً، وراء تيارات الواقع المتقلّبة.. هذه التيارات تشكّل حياته، دون أن يلعب دوره المصيريّ، في توجيه الحركة المحيطة به، نحو ما يخدم مصالحه، ومفاهيمه، ورؤيته لذاته..

إنّ وجود المثال في حياتنا، يوظّف الأداء اليوميّ للفرد، أو الجماعة، في نهج يخدم هدفاً مستقبلياً.. ومن المؤكّد أن هذا المستقبل ليس وهماً.. إنه الواقع الذي سوف نعيشه، في الايام أو السنوات المقبلة.. إنّ وجود هذه الهدفية يكسب الحياة معنى.. يخرجها من دائرة الضياع والعبث..

يجعلها اختياراً لا مجرد ضرورةٍ.. يطرح الكفاح بديلاً للاغتراب.. هذه هي الصيغة السويّة لمفهوم التكيّف مع الواقع.. وما الانسحاب من الواقع، أو الإنسياق وراءه، سوى حالتين مرضيتين.

والمثال من الاهمية في حياتنا، بحيث يمكننا إلى حد بعيد جداً، أن نقول: "قل لي ماذا تحلم، أقول لك من أنت" .. إنه خلاصةٌ لمكنونات صدورنا.. خلاصة لتجاربنا وثقافتنا.. إنه بالضبط جملة واحدة، تلخص معنى الحياة، بالنسبة لنا.. موقفنا من هذا الوجود.. الحكم الذي نصدره على الواقع.. إنه يعبّر أصدق تعبير، عن فلسفتنا في هذه الحياة.. حتى لو كنّا ندعي أنْ ليس لنا فيها فلسفة.. إنّه هدف الزمان المقبل، كما نحدده له نحن ..

لكن هل تأتينا الايام والسنوات، بما انطوت عليه صدورنا، من أمانٍ؟.. كثيرةٌ هي الاحلام.. وقليلة تلك التي تتحقق منها.. أحياناً يكون الفرد هو المسؤول، عن عدم تحقق حلمه.. مثلاً هناك من يحلم بالتفوق، ولا يبذل أدنى مجهود.. وكأنه ينتظر أن يأتيه التقدم، من تلقاء ذاته.. أو أن يكدح في سبيله، غيره من الناس، ويقدموه له، على طبق من ذهب.. هناك من يبذر القليل، ويأمل أن يحصد الكثير.. هناك من يزرع الكراهية، ويأمل أن يجني المحبة.. هناك من لا يفكر بالعلاقة بين

ما يفعل، وبين ما يأمل فيه.. من لا يأخذ بنظام الأشياء..

والكلّ يسأل: "أليس من حقي.. ؟" "لِمَ تحقق ذاك لغيري..؟"
هـذه الثنـائيـة المرة، بين الحلم الجـذاب، وبين الـواقع البليـد، تفتك بـالانسـان.. الكل يعيش بـانتظـار ان تـأتيه الايـام، وربما السنـوات بحلمه.. وبانتظار أن يأتي ذلك الحلم، يعيش الانسان – وفي حقيقة الامر، يجد نفسه مرغماً على أن يعيش – واقعاً لا يحبه.. حلمٌ يتمهل.. واقع يتكرّس .. والحلم يبدو سراباً.. ويلوح الضياع باعتباره البديل الحقيقي الوحيد..

ما يجب تعلّمه، هو ضرورة أن يكون الحلم واقعياً.. طالما أن ليس المطلوب امنيةً، نمضي حياتنا في تمنيها، دون أن نحقّق شيئاً.. يجب أن نفكـر في العلاقـة، بين مـا نعيش، ومـا نتمنى.. هل نـسير فعلاً، في الطريق التي تؤدي إلى الهدف.. أم أننا فقط نسرح في خيالنا.. الواقع يطـالبنـا بـالعقلانية، والموضوعية، في رسم أحلامنـا.. وإلا أصبحت حياتنا ازدواجيةً جنونيةً.. حياةٌ تفتقر إلى المنهجية.. ومستقبلٌ مُتخيّلٌ لا أساس له على أرض الواقع.. إن الماضي هو المسؤول عن حاضرنا.. والحاضر هو الذي ينتج مستقبلنا.. يجب أن نحول الحلم إلى هدف أو أهـداف تـشكل نتـائجـاً.. ثـم نبحث عن الأسبـاب المؤديـة إلى تلك

النتائج.. ثم نؤصّل هذه الأسباب في حياتنا اليومية الراهنة.. ولا يكفي أن يكون الحلم موجوداً على الارض، لكي نعتبره واقعياً.. فالافراد يتفاوتون في نصيبهم، من ما على الارض من إمكانيات.. يجب أن لا نبني أحلامنا على وقائع يعيشها الآخرون، ولا نعيشها نحن.. ان لا نسرق احلام الاخرين.. ان تحقيق الحلم، ما هو إلا نتيجةٌ ضروريةٌ لاعتماد وسائل أو أسباباً أدت إليه.. وقد لا تكون هذه الوسائل في متناول أيدينا.. هناك أشخاص كثيرون حققوا احلاماً معينة.. لكننا قد لا نعرف ماذا فعلوا.. وغالباً ما لا يكون بمقدورنا تقليدهم.. لأننا نملك قدراتٍ، تختلف عن قدراتهم، ونعيش ظروفاً وملابسات، تختلف عن ما عاشوه.. يجب أن يكون حلمنا مرتبطاً بشخصياتنا وامكانياتنا الخاصة.. وهذه الشخصيات، والامكانيات، قابلةٌ للتطور، إذا ما أحسنا المحاولة.. بطبيعة الحال فإن الاستفادة من تجارب الاخرين.. نجاحاتهم وعثراتهم.. أمر لا بد منه.. إلا أنه يختلف عن التقليد..

كثيراً ما يخطىء الفرد في اختيار مثاله.. كثيراً ما نجد أن حلمنا القديم لم يعد يلائمنا.. أحياناً تكون المسألة مسألة نضجٍ.. نتيجة لما نكتسبه عبر الزمن من خبراتٍ، ومعلوماتٍ، نتيجة ما عشناه من تجارب.. أحياناً اخرى، قد نجد الامنية التي كنا نتمناها، قد تحققت..

فنتحرك نحو هدفٍ أبعد.. واحياناً تكون المسألة عبارة عن تراجعٍ.. حيث نعجز عن الوفاء بما يتطلبه مثالنا من مشاقٍ، والتزاماتٍ.. فيجري التنازل عنه، نحو مثال آخر أكثر تناسباً مع استعداداتنا..

إذا ما كان الهدف واقعياً.. يعبّر عن شخصياتنا، واستعداداتنا، فلا بد من المثابرة.. الصبر كلمة استعملت لتعني الخنوع، والذل، والرضى بكل شيء.. واستعملت أيضاً لتعني الكسل، والتراخي، وعدم القيام بأية فعاليةٍ.. لكنها تعني في الحقيقة شيئاً آخر.. فمن يطلب تغيير الواقع لا بد له من التحرّك.. وغالباً لا تأتي النتائج فوراً وبسهولةٍ.. هناك من لا يقبل ان يعطى الزمن حقه.. من يريد مطلبه مباشرة وإلا.. وهل نهدد الزمن ؟.. غالباً ما ينتهي هؤلاء المستعجلون إلى التنازل عن الحلم، والقبول بأي حلّ في متناول اليد.. ما دام هذا الحل مباشراً وفورياً.. مثل هؤلاء لا يمكن اعتبارهم أصحاب مبدأ، وشخصيةٍ.. إنهم مستعدون للتخلي عن مطامحهم بسهولةٍ.. تحت شعار الروح العملية..

يجب أن نتحلى بالصبر.. وكثيراً ما نجد أنفسنا نعيش في فراغ.. خاصة إذا ما كانت المسافة بين الواقع والحلم طويلة.. يجب أن نقبل بحالة الفراغ.. طول المسافة يغري بحلٍ مؤقتٍ.. حتى لو كان جزئياً

أو هامشياً.. ليخفف من وطأة الواقع، وقسوته، وبلادته.. وغالباً ما يكون الحل الجزئي بديلاً استراتيجياً.. غالباً ما نظنّه أو نخدع أنفسنا لتبريره، عل اعتبار أنه ليس بديلاً للمثال.. على اعتبار أنه نقطة ارتكازٍ مرحليةٍ.. لكن قد يكون الامر في حقيقته على العكس تماماً من ذلك.. المحطة، قد لا تكون نقطة توقف مؤقتةٍ.. والوقفة كثيراً ما تطول.. ما أكثر الحالات التي استحال فيها المؤقت إلى دائمٍ.. فالحل الجزئي قد يطرد الحل المثالي.. كثيراً ما يظهر المثال فجأة، ليجد الحل المؤقت يعترض الطريق.. يقول الفرنسيون: " لا شيء يدوم سوى المؤقت ".

من الخطأ أن نحمل القول بالفراغ، على محمل أن الفراغ هدفٌ في ذاته.. بل لا بد ان نختار صيغة تكيفٍ ملائمةٍ.. ليس من الضروري، حتى نكون مخلصين، ان نحرص على وجود فراغٍ مطلقٍ.. بل ان نعالج هذا الفراغ بحكمةٍ.. وفي محاولة ملء الفراغ لا تعتبر كل خطوةٍ خطراً..

لا بدّ من المرونة.. إذا ما كانت هذه المرونة، لا تعني التنازل عن الحلم.. أو اتخاذ موقفٍ يؤدي الى استبعاده.. بل بالعكس.. ربما تأتي خطوة "الاتجاه الاخر" بالحلم.. أو تفتح له طريقاً جديداً.. مثلاً قد يعمد شخص يعاني من البطالة، إلى تنمية هوايةٍ أثيرةٍ عنده.. وغالباً ما

تأتي هذه الهواية بعلاقاتٍ جديدةٍ، قد تقود إلى فرصة العمل.. حالات عديدة نمت فيها الهواية، لتصبح هي فرصة العمل المطلوب، والمحبّب.. قد يعيش المرء فراغاً معيناً في حياته.. وقد يكون هذا الفراغ ضرورةً.. لكن على هذا المر أن ينفتح على الحياة، والناس.. ومن المؤكد أنه سوف يجد من خلالها، الحل الصحيح لمشكلته..

من الضروري أن نحارب اليأس.. لأنه العدو الأول، والخطر الحقيقي، على مثلنا وأمانينا.. فمن يصاب باليأس، نتيجة مرارة الواقع، لا يكون قادراً على التغلب على هذه المرارة.. الواقع يشهد تقلباتٍ مفاجئةً.. ويجب ان يكون المرء دائماً مستعداً لتحقق الحلم.. الكثير من ضرورات الحياة يأتي على شكل صدفٍ.. غالباً ما يفاجئنا حلمنا على حيث غرة.. غالباً ما يصادفنا على قارعة الطريق.. فلنكن مستعدين متأهبين لاغتنام فرصتنا.. إحدى الفتيات خرجت للتسوق، فعادت مخطوبة.. كثيرة هي الاحلام التي تضيع.. كثيرة هي الاحلام التي تأتي، لتجد أصحابها متغمسين في عبث الايام، بشكل لا يعودون معه قادرين على الامساك بها.. قليلون جداً، هم الذين يتحملون ركود الايام، وتمهل الحلم.. ويبقون في الوقت نفسه، جاهزين للعمل..

أنت والنجوم

"ترى ماذا يخبىء لي المستقبل؟" ليس هناك من لا يسأل نفسه هذا السؤال... ويصبح الأمر اكثر إلحاحاً عندما يقع المرء في مشكلة ما... ويستحيل الى حاجة ماسّة، اذا ما تطورت هذه المشكلة، لتأخذ شكل الازمة، أو الكارثة، التي تهدد مجرى حياته... في هذه الحالات يكون السؤال الطبيعي هو: "من يستطيع ان يرشدني الى الكيفية، التي يتوجب علي أن أتصرف، أو أعالج، وضعي وفقها؟" لكننا نجد السؤال يأخذ طابعاً مغايراً: "هناك أقدارٌ تتحكم بحياتنا... فكيف السبيل اليها... من يستطيع ان يكشف لنا المستور؟" كثيراً، وخاصة في الحالات التي يواجه فيها الفرد خيارات مصيرية، يشعر المرء بعجزه عن تسيير حياته، وفق ما يشتهي... بل حتى بالعجز عن اتخاذ قرار بالمفاضلة بين خيارين...

وكما أن هناك من كرس حياته، لاستغلال ضعف الاخرين، فهناك دائما من يترصد حالة الضعف هذه.. هناك من يزعم أن له للأقدار سبيل... أنه يستطيع أن يكشف لك مصيرك أو مصير من تحب، أو ربما من تكره... فقط اعطه كفك، أو فنجان قهوتك... وسيجد خطوطاً تنبىء بظروف، وملابسات حياتك، والنهاية التي ستؤول اليها.... سوف يقول لك كم سنة سوف تعيش، وكم مرة سوف تتزوج، وكم طفلاً سوف تنجب. سوف يجيب على معظم – إن لم

يكن كل- اسئلتك: هل أنت مقبلٌ على سفرٍ؟ هل ستنجح في الامتحان الذي ينتظرك؟ هل سوف تتخرج؟ تتزوج؟ هل سيشفى من مرض من اقاربك؟ هل الفتاة التي تحبها تبادلك شعورك؟ ماذا سوف تكون نتيجة العلاقة؟

ويستحيل حالة الترصد هذه "علماً"... يصبح الغيب "علماً" يدرس في معاهد خاصة، وربما في كلياتٍ أو مؤسساتٍ جامعية... واحد اشكال هذا "العلم" رصد حركة النجوم والكواكب، وتقصي اثرها على حياة الفرد والعائلة.. فقط قدم تاريخ ميلادك، ومن المفضل أن تذكر أية ساعةٍ، حتى تكون الدراسةً اكثر دقةً... وينفتح كل باب كان موصداً... شخصيتك، مصيرك، مستقبلك، اقاربك، مدراؤك، زملاؤك، اصدقاؤك، وضعك العاطفي، المالي، الاسري، بل وحتى السياسي...

لا تستغرب عزيزي القارىء، فهناك من "يكشف" مستقبل أي دولة، أو معاهدة، ونجاحاتها المحلية، أو الدولية، من خلال معرفة تاريخ تأسيس هذه الدولة، أو توقيع هذه المعاهدة فيطبّق على هذا الكيان الاجتماعي "نظريته العلمية"، التي كرّس حياته لتطبيقها على حياة الأفراد...

لقد اصبحت مطالعة الصحف الحدث الأول، في قائمة نشاطاتنا اليومية... ويا ليتنا نتلهف على اخبار مجتمعنا، وموقعه في هذا العالم؟! لو كان الامر كذلك، لكنا رواد التقدم وسادة التحضر... بل صرنا نشتري الصحيفة بهدف قراءة زاويةٍ محددةٍ فيها... ومن ثم قد نقرأ الصحيفة، أو نطرحها جانباً، بعد ان نكون قد "اكتشفنا"، ماذا يخبىء لنا هذا اليوم، أو الاسبوع، أو الشهر، حسب موعد صدور الصحيفة، أو المجلة...

واذا ما سألت المرء "كيف تسنى لكاتب، أو كاتبة، هذه الزاوية، أن يشق طريقه إلى ما تخبئه الاقدار للبشر؟". سوف تكون الاجابة انها مجرد تسليةٍ... مجرد فضولٍ..." ولكن عندما تنشأ ازمةٌ ما، أو يفكر باتخاذ قرارٍ هامٍ، تجده يسارع الى شراء الصحيفة لقراءة "قدره".... واذا ما كانت الأزمة حادة، أو القرار هاماً، تجده يبحث عن مثل هذا "العالم" ليطرح عليه التفاصيل، ويسأله الحل. كثيرون هم الذين يسألون، وهم بصدد اتخاذ قرار بالزواج، فيما اذا كان تاريخ ولادة الشريك، ينبىء بزواج موفق، ام لا.. ولا تستغرب عزيزي القارىء، اذا ما علمت ان قرارات كثيرةً، يتم اتخاذها على ضوء حركة النجوم، وعلاقتها ببرج الفرد، الذي يتحدد بناء على تاريخ ولادته... اعمال، مشاريع، صفقات، زيجات، رحلات، علاقات، دراسات... كثير منها

يتقرر بناء على حركة النجوم... لا شك ان هناك نجوما وكواكبا... ولا شك انها تتحرك... لكن ما اثر هذه الاجسام المتحركة على حياتنا؟ لا شك ايضا ان هناك اقداراً معينةً، لكن كيف تتكشف هذه الاقدار من خلال هذه الحركة الفيزيائية؟

من المؤكد ان ثمة علاقاتٍ بين مواقع الكواكب، وحركتها، وأن ثمة آثارٌ لحركة الواحد منها على الآخر. وهناك مثال على ذلك يجب المنجمون ذكره، الا وهو دور جاذبية القمر، في احداث حركتي المد والجزر، في مياه بحار ومحيطات كوكب الارض. ان العلاقة، والتجاذب، بين الكواكب مسألة لا يمكن انكارها. وهناك علاقاتٌ يقينيةٌ اخرى، مثل وجود كواكب معينة، في مواقع خاصة، اثناء فتراتٍ محددةٍ من السنة. اذا ما تعمقنا في مثل هذه الحقائق، فاننا نكتشف زيف علمية التنجيم، لا صدقها، كما يريد هؤلاء المنجمون.

ان الحقائق العلمية التي يسوقونها، لتأكيد صدق اقوالهم، لا تنتمي إلى "علم التنجيم" المزعوم، بل تنتمي إلى علم الفلك، وهو علم حقيقي أدى تطور دراساته، إلى رصد حركة الكثير من النجوم والكواكب، ومعرفة الكثير عن خصائصها وصفاتها، بحيث اصبح من الممكن الوصول اليها...

ترى ماذا وجد البشر الذين توسعوا في علوم الفلك؟ فليسامحني الشعراء عندما اقول: تبين أن كوكباً مثل القمر أرضٌ سار عليها الانسان عام ١٩٦٩، أرضٌ لها ارتفاعات، وانخفاضات، وتربة... داسها الانسان، وصورها، ووضع اجهزته فوقها لدراستها... لم يعد القمر يعتبر الا له ديانا كما سماه الرومان، أو ارتيمسٌ كما دعاه اليونانيون... كذلك الشمس، تبين أنها كتلة نارية، وليست الاله الذي عبده الفراعنة قديماً...

هذه المفارقة تكشف الأرضية التي نشأ فوقها التنجيم، الا وهي الدراسة العلمية - التجريبية للكواكب وحركتها، وإضفاء صفة الربوبية على هذه الكواكب، وتوقع احداث او كوارث تقع للبشر، نتيجة لحركتها بدءاً من الزلازل والفيضانات، وانتهاءاً بالحروب... واصبح تفادي مثل هذه الكوارث لا يتم الا بمناشدة هذه، القوى والتماس رحمتها... هذا هو المنشأ الوثني للتنجيم، باعتباره اضفاءً لصفات الربوبية على الكواكب، التي كشفتها الملاحظة الفلكية، واختراعاً لاساطير تسرد علاقات قصصية بين هذه القوى، كما لو كانت كائنات حية، تحمل صفات وخصائص نفسية، واجتماعية، وعاطفية... وتنسخ هذه الصفات، والخصائص، على الحياة الأرضية.

فكيف يفسر المنجمون اليوم ملابسات حياتنا؟ احدى الطرق الرئيسية، هي تقسيم السنة الى اثني عشر برجاً، رغم أن هناك من يجادل في عددها، أو كيفية استخلاصها... فالبرج ما هو الا عبارة عن مجموعة محددة من الكواكب، ودائما يأتينا اكتشاف كوكبٍ، أو نجمٍ أو مجموعةٍ جديدة، فتتعالى الأصوات مطالبة باستحداث برج جديد. فبداية تقسيم الأسبوع كانت إلى خمسة أيام، تبعاً للكواكب الخمسة التي كانت معروفةً في ذلك الوقت، ثم اكتشف كوكبان آخران، فأصبح سبعة أيام، والآن اكتشفت ثلاثة جديدة.. كذلك تم اكتشاف مجموعة من النجوم، بين برج الميزان وبرج العقرب، فاخترعت منجمة بريطانية "برج الأفعى"، جاعلة منه البرج الثالث عشر، وحتى تتمكن من ايجاد مكان له، اختزلت أيام كل برج، بحيث اصبحت السنة تشمل ثلاثة عشر برجاً.

لكن، ما علاقة هذا كله بحياة الفرد؟ يربط المنجمون صفات الإنسان بتاريخ ولادته، فيعتبرونه ينتمي إلى البرج الذي كانت فيه أشعة الشمس يوم ولادته، وبدل أن ينسبوا ما سوف يكتسبه الفرد من صفات، في حياته المقلة إلى الوثن الراعي لذلك البرج، تراهم يتخذون هيئةً علميةً فيقولون، أنه في ذلك التاريخ كان للكوكب انتظامٌ خاصٌ، وتشكيل محددٌ للذبذبات الكهرومغناطيسية التي تصدرها، والتي

يصلنا ما يصلنا منها، فتلعب الدور الرئيسي في تشكيل صفات من يولد في ذلك اليوم.

فيقسمون الأبراج إلى أربعة مجموعاتٍ، يسمونها: النارية، والترابية، والهوائية، والمائية. ويصفون الأولى منها بالحماس، والثانية بالواقعية، والثالثة بالتفكير، والرابعة بالعاطفية.

كان القدماء من الوثنيين يرون في حركة الطبيعة إنذاراً بحدث جللٍ، فكانوا يخشون الكسوف والخسوف وظهور المذنبات. أما اليوم فقد تبين أن ما كانوا يعتقدونه رباً ما هو إلا كتلة مادية تسبح في الفضاء.. وإذا ما كان لهذه الحركة آثارٌ ماديةٌ في الوسط الفضائي المحيط بها، فكيف نسمح لأنفسنا بالقول "أن لها آثاراً اجتماعية"؟ "أنها تصنع اقدارنا"؟ وبدل أن ينشد الفرد مستقبله عبر كفاحه الشخصي – الإجتماعي، نجده يلتمسه في حركة كوكبٍ من الكواكب. بالضبط يعتمد إنسان القرن الواحد والعشرين، سلوكياً، نفس الأسس التي كان يعتمدها وثنيو قرون الجهل والظلام. وعندما تحاصره بالنقاش العلمي، يتذرع بأنها ما هي إلا مجرد تسلية.. في حين أنه يضمر في داخل نفسه سؤالاً: "لم لا أجرب؟"

وغالباً ما تقوده التجربة إلى التصديق.. التصديق بالزيف..

فالمنجم ما اعتمد إلا صفاتٍ، ومفاهيم عامةً، تنطبق على معظم البشر -إن لم يكن كلهم. ولا بد وأن يأتي التعميم بالصيد السهل: هذا الأسبوع تصادفك مفاجأة غير متوقعة " .. واي منا لا تصادفه المفاجآت؟ أي منا لا تأتيه الأيام بغير ما يحتسب؟ نجاحٌ على صعيد العمل.. معظمنا سوف ينتظر هذا النجاح بتلهّفٍ، ولكن ماذا يحصل لمن يفقد عمله في هذه الفترة؟ سوف يرد عليه المنجم قائلاً: " نجاح في مجال آخر سوف يأتيك " وإذا ما إتجهت حركة كوكب الزهرة نحو موقع برج كالعذراء مثلاً، يتهلل المنجمون، ويحملون البشارة لمواليد هذا البرج، بأنهم سوف تتاح لهم فرصة النجاح العاطفي؟ كيف ولماذا؟ لأن كوكب الزهرة في نظرهم هو المسؤول عن حياتنا العاطفية. يعتبرون أنه بدخوله على برجٍ ما، يدخل العاطفة الى حياة مواليد هذا البرج. لقد جرى إكساب الكواكب الخصائص البشرية، حيث تم افتراض ان كل كوكب مسؤول عن أحد جوانب القدر في حياة الناس: المال، العلم، العاطفة، السفر،... وبدخوله على البرج، يفرض قدره على مواليده.

ترى، هل بعد كل هذه الثورات العلمية، والتقنية، والفكرية، والاجتماعية، ندخل القرن الحادي والعشرين، بمعتقداتٍ وثنيةٍ، نبني وفقها حياتنا؟

الجاسوسة الشقراء

في زمن ليس بعيداً، وفي دولةٍ ليست بعيدةً، شهد التاريخ مثالاً غريباً : كان شرب القهوة ظاهرة غير مألوفةٍ .. وبذلك شكّل ممارسةً مريبة لدرجة أنّ تعاطيها، كان يتم في جلساتٍ سريةٍ، تعقد في البيوت .. وياويل من ينكشف أمره .. واليوم يحمل أحد أصناف القهوة اسم ذلك البلد ..

ابن رشد، قوبل بإحراق كتبه .. واليوم تحمل مدارسنا وكلياتنا، شوارعنا ومياديننا، اسمه اعتزازاً وافتخاراً. في زمنه، اعتبره أبناء عصره عميلاً للهرطقة اليونانية، واليوم نكابر على جهل الغرب بحضارتنا قائلين : إنكم لم تقرأوا ابن رشد .. ولدينا كثيرٌ مثله !!

هناك من اعتبر التاريخ الحضاري والحياتي للبشرية من نتاج الفكر، وجادل آخرون بأنه من نتاج المادة، وآخرون قالوا بالغرائز .. ويحتدم الصراع الآن حول علاقاتٍ مجرّدةٍ يدعونها (بنى) .. أما نحن، فلا زلنا نكشف ونعلن كل يومٍ، أن التاريخ ما هو إلا عبارة عن مؤامراتٍ سريةٍ يحيكها الجواسيس..

كل جديد نرى فيه خطراً يهدد حضارتنا، وثقافتنا، وقيمنا، وانتماءنا .. ونأخذ في البحث عن جاسوسٍ، ننسب إليه جريمة اختراق " السور الحديدي " الذي قبعنا وراءه، نسترق النظر إلى ما قد يبدو

للعيان، في الجانب الآخر.. ونسترق السمع إلى ما قد يصلنا من أصوات .. ويشتد قلقنا ويتحول إلى صراخٍ، هدفه حماية هذا السور..

سورٌ كسور الصين.. حديديٌّ حديدية ستالين.. ويل لمن يحاول عبوره.. سواء من جانبنا إليهم.. أولئك الأعداء.. أو من جانبهم إلينا.. نحن أصحاب الأصالة.. إذا كان العابر أسمر فهو عميل.. أما إذا كان أشقر فهو الدخيل.. والويل كل الويل، إذا كان ذلك الشخص امرأةً، فهي حصان طرواده، الذي ندخله بأيدينا إلى داخل قلعتنا الحصينة.

ولا يقل الأمر خطورةً، إذا ما اذخل عابر ما كتاباً، فالمرأة قد يقف شرها عند حدود الزوج، أما الكتاب فقد ينقل ما يجري هناك، إلى داخل القلعة الحصينة.. وننسى أن لدينا كتب ابن رشد، والفارابي، والكندي.. أولئك الذين نعتز بهم، ولا يقرأ كتبهم منا، إلا من أغواه شيطان الإغريق، لأننا ما زلنا في قرارة أنفسنا، نعتبرهم دخلاء على أصالتنا.. بل ربما ظن البعض إن طائفةً، أو دولةً ما، تجنّد شبابنا من خلال كتبهم، لمؤامرة سريةٍ أعدّها أرسطو، ولم ينفذها بعد.

لن أدافع عن كل من يقف هناك.. ولن أدافع عن كل ما يجري هناك.. في الطرف الآخر.. خارج السور.. فهويّتهم معروفةٌ، وما

ارتكبوه، وما يرتكبونه من جرائم بحق أنفسهم، وبحق غيرهم، في غنىً عن الكشف والتعريف.. لكن هل كل ما يدور هناك هو الجريمة ؟! وهل الحضارة البشرية، ما كانت إلا سلسلة مؤامرات ؟ وهل الجديد لا يأتي إلا من قبل الجواسيس المجندين للسهر على تلك المؤامرات وتنفيذها ؟!

لا أخشى القول بأنني زرت المركز الثقافي الإسباني، والفرنسي، والألماني، رغم عدم معرفتي بلغاتهم، واشتركت في مكتبات المركز الثقافي السوفيتي، والبريطاني، والأمريكي، واستمرت هذه الحال سنوات فماذا وجدت يا ترى ؟!

وجدت حقائق مذهلةً، لا يمكن بأية حال اعتبارها استثنائية: كان أحد الكتب التي استعرتها من المركز الثقافي الأمريكي، من تأليف أستاذٍ في إحدى الجامعات الأمريكية، يقدم فيه تصوراً استراتيجياً نظرياً، من خلال استعراضه للوقائع التاريخية، يبين فيه أن السياسة التي انتهجتها أمريكا تجاه الشرق الأوسط، تتعارض مع مصالحها التاريخية الحقيقية.

وكان أحد الأفلام التي عرضها المجلس الثقافي البريطاني، عبارةً عن تصوير لحياة غاندي، وكفاحه ضد استعمار الانجليز للهند. ولا

يتواني الفيلم عن تبيان ما ارتكبته انجلترا، في محاولاتها قمع هذه الرسالة الإنسانية، والحضارية.. بل ويصوّر أيضاً لقاءات غاندي مع الساسة الانجليز، الذين كانوا يحاولون أن يثنوه عن عزمه، وإقناعه بالتراجع عن مطالبه، والتخلي عن دوره الكفاحي.. ويصوّر في المقابل ثباته على أداء رسالته التاريخية، حتى حققت أهدافها.

وكان من بين الكتب التي استعرتها من المركز السوفيتي، بعضٌ من كتب " دستويفسكيٌ " الكاتب المسيحي الذي عاش في عصر القيصرية، والذي لم تمتد إليه أصابع الشيوعية.. كانت مكتبة المركز تحوي ترجمةً عربيةً قام بها المترجم العربي القدير " سامي الدروبي " ، لمعظم ما كتبه هذا المؤلف، والذي لا زال موضع اعتزاز كل روسيٍ، حتى لو كان لا ينتمي إلى عقيدة الكاتب.

وقابلت في المركز الثقافي الفرنسي فنانةً تشكيليةً فرنسيةً، كانت تعرض لوحات رسمتها لمدينة البتراء الأردنية، تلك المدينة التاريخية التي نعتز بها.. لوحات تتجول بها عبر عواصم العالم، ناقلةً من خلالها صورةً، عن إحدى منجزاتنا الحضارية، التي استأثرت باهتمامها، ورأت أنها تستحق عناء السفر، للمشاهدة، والرسم، والعرض، والتجول بصورها.

ولن اعمد إلى القول بأنه ليس ثمة عمليات تجسسٍ، واختراق، لكن هل كان هيغل، صاحب الفلسفة التي كافحت في سبيل تبيان أن مجرى التاريخ، ما هو إلا تحقق للفكر المطلق، أو بعبارةٍ أخرى (الألوهية)، هذا الفيلسوف الذي حارب التسلط، وألهم الحضارة البشرية، من خلال كتاباته عن "التناقض". هل كان هذا الرجل جاسوساً ؟! ألا تستحق الفلسفة، والأدب، والثقافة، والفكر، التي أبدعها الألمان، عناء دراسة اللغة الألمانية ؟! أيمكن اعتبار تقدير هذه اللغة، وهذا الفكر، انحرافاً باتجاه النازية ؟!

التاريخ يشهد أن القوة الكبرى التي هزمت ألمانيا النازية، هي روسيا التي كان نظام الحكم فيها يقوم على التطبيق المحلي، لبعض نتاجات الفلسفة الألمانية.. فكانت هذه الفلسفة أخطر سلاحٍ، سدد في وجه النازية الألمانية الضربة القاتلة.. وكلام مماثل ممكن قوله عن "فولتير" و "ديدرو" و "مونتسيكيو".

لن اعمد إلى القول بأن أعداء الأمة لا يستغلون نقاط ضعفها، وعلى رأسها المرأة، لكن هل كانت الشابة الفرنسية، التي فطنت إلى موهبة طه حسين، وأخذها سحر الشرق، فشاركته حياته، ووقفت وراء عظمته، هل كانت جاسوسةً تهدف إلى اختراق وطنه ؟!

مـؤخـراً تعـرفت إلى أحـد أسـاتـذة الأدب العـربي في الجـامعـات الصربية، وفوجئت بأنه عضو في جمعية الصداقة العربية. والتي لها فرعٌ هناك، وليس لها فروعاً هنا. ترى هل هناك مؤامرة تحاك ضد إمرىء القيس، أو جبران خليل جبران.

ان الخوف هو رد فعل من يشعر بضعفه، فإلى متى نظل ضعافاً ؟! إلى متى نظل نرفع تكاليف الزواج، ونغلق الأبواب في وجه الشباب، ونحذّر في الوقت نفسه، من الزوجة الأجنبية ؟! إلى متى يظل ركن ابن رشد، والفارابي، والكندي، وابن سينا، ركناً مهملاً في مكتباتنا، ونحذّر في الـوقت نفسه من الـدراسـة في الخـارج ؟! الـى متـى نـظل اسيري وساوس التجسس، والمؤامـرة، والخـوف مـن الغريب ؟!

العـولمـة سـمـةٌ أسـاسيـةٌ من سـمات العـصر الحـديـث، ولم يعـد من الممكن لأية أمة أن تتقوقع على نفسها، وترفض المشاركة في التحرك على السـاحـة الـدوليـة. حيـث نـجـد كل أمـة تحـاول التعـرّف على الأمـم الأخرى، وتعرّف نفسها إليها، ونجد كل أمةٍ تعتز بما لديها من قيمٍ، وكتبٍ، ولغـةٍ، ورجـالٍ، ونسـاءٍ، سـاهمـوا في صنع الحضـارة البشريـة. وتقدّم نفسها للعالم من خلالهم.. لِمَ نحتجّ على هذا النشاط، بدل أن ننخرط به، فنحذو حذوهم ولا نزرع قيمنا، وكتبنا، ولغتنا، ورجالنا،

ونساءنا، في عواصمهم ؟

لِمَ لا تصدّر أفكارنا، بدل الاعتراض على تصدير الأمم الأخرى لأفكارها ؟ ومتى كان الفكر والحضارة، أمراً يخص أمةً دون أخرى ؟

في كل المراكز الثقافية التي زرتها. كنت أجد ورشاتٍ، يدرّس كل فيها لغته.. ويعد أصحاب التفوق بمنح دراسية.. فهل يوجب علينا انتماؤنا للغتنا، وثقافتنا، أن نرفض أن نتعلم ؟! بالعكس إنها أجيال المستقبل من مترجمين، ومتعلمين، ومعلمين، ومثقفين. علينا أن نميّز بين الصراع السياسي، والتفاعل الحضاري.. إنّ العهد المشرّف الذي نعتز به، هو العهد الذي كانت فيه أعمال المترجمين توزن بالذهب، دون أن تضع سياسة الفتوحات جهودهم موضع شكٍ أو ريبةٍ.

" الكمبيوتر " لم يخترعه جاسوس، وان كان من الصحيح القول أن من بين من يستخدمونه جواسيس، فهل كل من يستخدمه جاسوساً ؟! وهل من الصحيح القول: بأنه ما جرى اختراعه، إلا لخدمة غايات التجسس ؟ وحتى لو كان الأمر كذلك، فهذا لا يمنع أن نتعلمه نحن، وأن نستخدمه لخدمة أغراضنا، مصحّحين بذلك مساره !! والكلام نفسه يمكن أن يقال عن " الإنترنت ".

وإذا كان الإنجليز قد نشروا لغتهم، بشكل أصبحت معه عالميةً،

فليس الحفاظ على لغتنا، سوى أوهى ذريعةً، للانسحاب من المحافل الدولية، والعلاقات العالمية.

أيضاً فالتعارف، والصداقة والزواج، عن طريق المراسلة، ليس من اختراع أحد أجهزة التجسس الدولية، بل هو سلوكٌ يوميٌ يعيشه الناس هناك داخل مجتمعاتهم، ويتعاملون من خلاله.. وانتشر هذا السلوك، واصبح معروفاً عالمياً، وامتد إلى تقنيات النشر المتطورة. ولنفرض أن مايزعمونه من أن الزواج عن طريق "الكمبيوتر"، ما هو إلا صيغةٌ عصريةٌ لنظام الخاطبة التقليدي، فما العيب في ذلك ؟! وما العيب في دور الخاطبة ؟! إنها مسالة تقديم الراغبين بالزواج لبعضهم البعض، فهل أصبحنا نعيب هذا السلوك ؟؟ أكنا مخطئين عندما سبق واعتمدناه ؟! لو لا حاجة المجتمع إلى هذا الدور، لما كان قد خرج إلى حيّز الوجود. لم نعد نقبل بالأنظمة الاجتماعية التي سبق واعتمدناها، لأنها تقليدية، وفي الوقت نفسه، نرفض أنظمة العصر لأنها مستوردة، فماذا نعتمد إذا ؟! هل كل قديم مرفوضٌ لأنه تقليديٌ؟! وهل كل جديدٍ مرفوضٌ لأنه مستوردٌ ؟!

لا أحب أن أرى التوازن السكاني المحلي، بين الشباب والفتيات، يزداد اختلالاً.. ولا احب أن أرى معدل الزيجات المحلية يتناقص..

وأنا متيقّنٌ من أن فرصتي في النجاح مع إمراةٍ شرقيةٍ، اكبر بكثيرٍ من فرصتي مع غربيةٍ، نظراً للخلفية الحضارية الاجتماعية والثقافية التي تجمع بيني وبينها، لكن إذا بقيت أبواب هذا الزواج موصدةٌ أمامي، فسوف اضطر الى إدخال حصان طروادة، بالزواج من "جاسوسةٍ" شقراء !!

ملكوت العقل

ماذا يريد الرجل من المرأة ؟ وماذا تريد هي منه ؟ وكيف يحاول كلٌ منهما الوصول إلى غرضه، لدى الطرف الآخر ؟ هذه أسئلةٌ، يظن الكثيرون أن لا داعي لها، فبالنسبة لهم الإجابة واضحةٌ وسهلةٌ، بل وحتى بديهيةٌ.. لكن واقع الأمر هو على العكس تماماً، فما يظنه الكثيرون مسألة بسيطةٌ، نجده - في جوهره - مسألةً في غاية التعقيد، وما قد يظنوه واضحاً، نجده في غاية الغموض، هذا إذا ما ارتأينا تحليل الظواهر والأعراض، ومحاولة ردّها إلى أساسها،وتحليلها إلى العناصر المكونة.

إن أول إجابة تتبادر إلى الذهن هي الغريزة، ونجد مالا يحصى من النماذج والأمثلة، من حياة الكائنات الحية، البشرية، أو غير البشرية: الطير يتزاوج، بل وحتى النبات ينقسم إلى ذكر وأنثى، يتحرك بينهما الهواء.. لكن المسألة لا تكمن هنا، في الغريزة، بل في الكيفية التي يتعامل معها العقل، مع هذه الغريزة ؟ الغريزة تشكل طاقة الدفع، وهذا واضحٌ، لكن ما هو غير واضحٍ أبداً، هي الكيفية التي يستجيب بها العقل لدافع الغريزة، وكيف يتحرّك بناءً على تأثيرها في تفاعلٍ اجتماعيٍ، يمكن إذا ما تفحصناه، أن نجد اختلافاً بين فردٍ وآخر، بحيث يمكننا أن نقول أن الغريزة، أوعزت بتحرّكٍ ما، لكن الفرد هو الذي يقرر طبيعة، وكيفية، وزمان، ومكان، وكافة تفاصيل هذا

التحرّك.. بحيث لا يمكن مع ذلك وصف السلوك بأنه أمرٌ غريزيٌ، بل بأنه نتاج وعيٍ فرديٍ اجتماعيٍ، يمكن اعتباره مسألة ذكاءٍ وثقافةٍ وروحٍ جماعيةٍ، حتى لو كان منطلقاً من الغريزة.

ولو أمعنا النظر في سلوك الأفراد، فإننا نكتشف تشابهاً، ينتهي بنا إلى التوصّل، إلى نموذجٍ سلوكيٍ عامٍ يحكم العلاقة بين الجنسين. فهل هذا النمط نتاج للغريزة غير الواعية، أم هو نتاج اجتماعيٌ مكتسبٌ، ومتوارثٌ، اجتماعياً. إن الغريزة هي التي تدفع باتجاه التحرّك، لكن طابع هذا التحرّك هو مسألةٌ اجتماعيةٌ من الدرجة الأولى.

وإذا ما بحثنا في طابع هذا النموذج السلوكي، الذي يحكم العلاقة، فإننا نجد نموذجاً أو نمطاً سلوكياً يعتمده الرجل، وآخر تعتمده المرأة. والفارق لا يمكن رده إلى مجرد التكوين الفطري المختلف بينهما. إن هذا التكوين يضع الرجل في مقدمة العلاقة، لكن يخطىء من يظن أن موقع المرأة فيه هو العربة الخلفية، وأن العلاقة بينهما علاقة متبوعٍ بتابعٍ. إن المبالغة والتطرف في تقييم القوة الاجتماعية للرجلُ أدّت إلى وجهتي نظر متضادتين: الأولى ترى في الرجل سيداً لا يُحاسَب، وفي المرأة عبداً لا حق له. ومقابل هذا التطرف، وكرد فعل له، نشأ تطرفٌ آخر، يرى في المرأة رجلاً من طرازٍ

مختلف، له كل ما للرجل من حقوق، وعليه كل ما عليه من واجبات.

إلا أن هـذين التـوجيهين - رغم تضـادهما - لم يغيّـرا من طبيعـة النمـوذج السلوكي الـذي يحكم العلاقـة، فقـد بقي الرجل متفـوقـاً وطليقا، وبقيت المرأة تشعر أنها مغلوبةٌ على أمرها، بقي الرجل يتصرف دون شعور بالقيـد، أو المسؤولية، أو الـواجب.. وبذلك بقي شعـوره بالالتزام ضعيفاً أو منعدماً: لا خطر يواجهه، لا تبعات يخشاها، لا ضرر ينبغي تجنبه، لا ثمرة يتوخّاها.. وبقيت المرأة تتصرف بشكل معـاكسٍ، يسيطر عليه الشعور بالقيـد، أو المسؤولية، أو الـواجب، ويحكمه الشعـور بالإلتزام: هنالك أخطارٌ محدقةٌ، وتبعاتٌ تخشى، واضرارٌ ينبغي تجنبها، وثمارٌ تستحق التضحية في سبيلها.

ونتيجة ذلك، أخذ الرجل في علاقته بالمرأة، يتصرّف كطفلٍ كبيرٍ.. طفلٌ مدللٌ.. له الحق بكل مطالبه.. وما على العالم حوله إلا أن يلبي له طلباته.. ولكنه ليس ذلك الطفل الصغير، الذي تعوزه الوسائل، والامكانيات، فيحقق من خلال ضعفه توازناً مع أطماعه، بل أنه كبيرٌ، وواعٍ، ويعـرف كيف تـؤكل الكتف، ولـديه كل الامكـانيـات التي تساعده على ذلك.

وفي المقـابل نجـد المـرأة تعـالج ضعفهـا، بـالحيلـة، والمكـر،

والدهاء..على دماغها أن يعالج قصور إمكانياتها.. على ذكائها أن يحقق لها التفوق الذي تطمع به.. فهل تترك العضلات الجسدية والمالية، التي يتميز بها الرجل، تحكم عليها بالعبودية ؟؟ وكانت إجابتها على مدى التاريخ " لا، فالوحش يمكن ترويضه بالصبر، والتحايل، والمراوغة " .

الرجل لا يحسب حساباً لشيء، والمرأة لديها كل الحسابات.. الرجل يقول للمرأة كل ما يريد، بل وحتى كل ما لا يريد.. أما المرأة فتتعلم كيف تجعل الرجل يقول ما هي تريد.. الرجل "بطل" يتباهي بصولاته وجولاته.. وهي سلاحها السرية والتكتم.. الرجل "مقدام" لا شيء يعيقه.. وفي المقابل المرأة "إنسحابية" ولو شكلياً.. الرجل متلهفٌ ومتدفقٌ، والمرأة باردةٌ وسلبيةٌ.. الرجل يطلب، والمرأة تمنع، أو تتمنّع.. والكذب سلاحٌ مشتركٌ، يشهره كلٌ في وجه الآخر.

يخطىء من يظن أن هذا الانقسامٌ سمةً من سمات التخلف، ولا يوجد إلا في دول العالم الثالث فقط لا شك أن دول العالم المتقدم، شهدت تغيراً كبيراً في هذا المجال، إلا أن المعادلة بنمطها السلوكي، مازالت تجثم على صدر العالم كله، مهما اختلف نصيب رقعةٍ أو أخرى، من مستوى التحضر.

ويخطىء أيضاً من يظن، بأن الثقافة رغم ما أدخلته من تغيرات على سلوك كل من الرجل والمرأة، قداستطاعت أن تخرجهما من هذا النموذج السلوكي البدائي. فما يزال الرجل والمرأة مثقفين، حتى تتحرك بينهما العاطفة، فتجدها قد انقلبا في تعاملهما، مع بعضهما البعض، إلى شخصين في غاية العاميّة. إنه قانون السوق، الذي لا علاقة له بثقافةٍ، أو ذكاءٍ، كلٍ من المشتري والبائع: هكذا يتم الشراء والبيع.. لن تجد من يتعامل معك وفق قانونك الخاص.. عليك فقط أن تسلك وفق النموذج المرسوم مسبقاً، والترتيبات المعتمدة المعدّة سلفاً، وحتى لو افترض الطرف المقابل، أن نموذجك أفضل، فلن يرى في ذلك سوى سلاحٍ جديدٍ تخترعه، لدخول المعركة القديمة، فيأخذ في البحث عن الكيفية التي يمكنه فيها محاربتك، بما يبدو سلاحاً فتاكاً.

الاشكال يكمن أصلاً في الطمع: طمع الرجل في المرأة، وطمع المرأة في احتلال موقع الرجل. ولن يزول هذا الاشكال، إلا إذا قرر الإنسان أن يحتكم إلى ما يميزه عن عالم الحيوان، ألا وهو العقل، الذي يردّ للإنسان إنسانيته التي ضيّعها، فيخرجه من ملكوت الضرورة، ليدخل به ملكوت الحرية. لا بد وأن تلعب العملية المعرفيّة، التي تعاظمت في القرن الاخير، دورها في تغيير معادلة سلوك الفرد - الجنس، من معادلة تنهج شرع الغاب، إلى معادلة تنهج شرع العقل..

من صراع القوة الذي تحرّكه همجيّة الطمع، إلى تضـامن العقل، الذي يحركه حلم الإنسانية.

صيد الرجال

يطمح الرجل، بحكم تكوينه، إلى أن يرتبط بفتاةٍ. ويسعى، إذا ما لفتت انتباهه فتاة معينة، بجمالها أو بثقافتها أو ... أو ...، إلى أن يتقرّب منها، محاولاً إنشاء ارتباطٍ. قد تكون صيغة هذا الارتباطِ صداقةً، علاقةً، خطبةً، زواجاً ... ليست تلك هي المشكلة، وإنما المشكلة، هي أن الفتاة، وبغض النظر عن صيغة الارتباط، تأخذ في الابتعاد .. تبدأ باظهار نفورها، وعدم رغبتها في الارتباط. والرجل غير المجرّب، سوف يظن أنها ترفضه. والتمييز ما بين الرفض الحقيقي، والرفض المناور، يصعب على الكثير من الرجال.

فماذا يفعل الرجل عندما يُواجَه بالرفض بدل القبول ؟ وبالنفور بدل الاقبال ؟ بعض الرجال يأخذ الأمر بحساسيةٍ شديدةٍ، وينسحب، ظاناً أنها لا تريده، وأنّ عليه أن يبحث عن فتاةٍ أخرى، يلقى لديها القبول.

أمّا النمط الشائع من الرجال، فيبدون الاستجابة التي تطمع إليها المرأة، وهو أنه يصبح يعتقد أنها صعبةٌ، وبالتالي تزداد رغبته فيها، ويبدأ بالتنازل والتماس رضاها. وهذا هو الوضع الذي تسعى إليه المرأة، لتؤسّس عليه الارتباط، وتفرض الصيغة، والشروط التي تريدها.

ربما يظنّ الرجل، أن المرأة قد تبدي التمنّع، إزاء العلاقة غير الزوجية، أما في الزواج فسوف يكون من الطبيعي، أن تظهر رغبتها، غير أن مثل هذا الظن سطحيٌ، ولا يستند لا إلى التجربة الشخصية، ولا إلى المرجعية الدينية، أو التاريخية.

إن المرأة تتمنّع، حتى في الزواج، وأيضاً بعد الزواج، بحيث يحق لنا أن نقول "لم يعرف النساء، من لم يجرّب تمنّعهن"، فالمرأة عن طريق رفضها تحاول أن تستخرج من الرجل طلبه لها.. تحاول أن تفرض عليه وضعاً معيّناً، لا أن تتخلّص منه، ولنا خير مرجع في قوله سبحانه وتعالى، في سورة النساء "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً".

ويعرف الامام الرازي في كتابه "التفسير الكبير" النشوز، بأنه معصية الزوج والترفع عليه بالخلاف، وأصله من قولهم نشز الشيء إذا ارتفع، ومنه يقال للأرض المرتفعة: نشز ونشر. ويضيف بأنه روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "كنا معاشر قريش تملك

رجالنا نساءهم، فقدمنا المدينة، فوجدنا نساءهم تملك رجالهم، فاختلطت نساؤنا بنسائهم، فذئرن على أزواجهن، أي نشزن واجترأن، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له: ذئرت النساء على أزواجهن، فأذن في ضربهن، فطاف بحجر نساء النبي صلى الله عليه وسلم جمع من النسوان كلهن يشكون أزواجهن، فقال صلى الله عليه وسلم "لقد أطاف الليلة بآل محمد سبعون امرأةً، كلهن يشكون أزواجهن، ولا تجدون أولئك خياركم"، ومعناه أن الذين ضربوا أزواجهم، ليسوا خيراً ممن لم يضربوا. ويضيف الامام الرازي أن البعض قال: أن حكم هذه الآية مشروعٌ على الترتيب، فإن ظاهر اللفظ، وإن دل على الجمع، إلا أن فحوى الآية يدل على الترتيب، بمعنى أولوية الوعظ، ثم الهجران، ثم الضرب. إن جوهر المشكلة هي قوامة الرجل، وطمع المرأة في أن تسحب من الرجل قوامته، لتمارس هي قوامتها عليه، وفي هذا لا بد من ذكر قول الله سبحانه وتعالى ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾. أما المرأة فتجعل الشرط الذي تباشر على ضوئه العلاقة، وتؤسّس عليه الارتباط، هو قوامتها هي.

والرجل كثيراً ما يجد، أن عليه التنازل، حتى ينال رضاها، فيتنازل ظاناً أنها إنما هي حالة، أو لحظة عابرة ليجد فيما بعد أنها طبيعة

العلاقة، وهو إمّا أن يرضخ ساعتها، أو يتمرد. كذلك قد تكون الأزمة كاملةً من صنع المرأة، حيث تظهر في البداية رضاها بقوامة الرجل، لتعلن حينما تجد أنها قد مكنت لنفسها، التمرد. وهذا هو مصدر الكثير من المشاكل العاطفية، أو الزوجية، ولا حل له إلاّ بالاتفاق منذ البداية، حول طبيعة العلاقة، وبتحكيم الشارع عز وجل بها، وحكمه معروف، ألا وهو "قوامة الرجل، وقبول المرأة ورضاها بها".

ومن يتأثر بوجهة النظر المادية، يرى في سيطرة الرجل على وسائل المال والحياة الاجتماعية، التفسير الوحيد لقوامته. لكن فلنسأل أنفسنا "لماذا سيطر الرجل على هذه الوسائل ؟ لماذا لم تسيطر عليها المرأة؟"، ويشير القرآن الكريم، إلى ما ينفق به بعضهم على بعض، إلا أن يذكر هذا بعد قوله "ما فضل الله به بعضهم على بعض".

المرأة ليست صنفاً آخر من الرجال.. صنفاً ينجب الأطفال ويطهو الطعام، المرأة كيانٌ عاطفيٌ، بحكم تكوينه، ولا يمكن أن يرضى إلا إذا عومل من خلال هذا المفهوم. وقوامة الرجل، ما هي إلا قوامة العقل على العاطفة. النساء لسن مجردات من العقل، لكن تستحوذ عليهن العاطفة.

وسلطة المال قد تبدو طبيعية بين الرجال، إلا أنها بينهم وبين

النساء، سرعان ما تتبدّد، لتحل سطوة الجنس محلها. ولا شك في أن أكبر امبراطوريات المال، تقدم كل سطوتها، قرباناً لرضى زوجات، أو صديقات، أصحاب تلك الامبراطوريات.

ومن كان يبدي بين الرجال قوةً وسطوةً، قد لا يستطيع التصرّف في ساعة من وقته الخاص، بما لا تأذن به صاحبته.

ولا تتمنّع المرأة إلا لتحكم سطوتها تلك، ويستحيل دور الرجل إلى صائدٍ للمال، يصارع الرجال في سبيل الحصول عليه، وتقديمه إليها، وتصبح هي صانعة القرار، ومحددة المصير.

وتجربتي الشخصية تمدّني بنماذج لا حصر لها من البيوت، التي حين كنت أذهب لاستئجارها، لم أكن أجد لدى رجل البيت إمكانية التفاوض بشأنها، بل كان يطلب مني أن أتفاهم مع زوجته. بالإضافة إلى رجال، كانوا يستميتون في سبيل تثبيت وضع لهم بين الرجال، لكن في بيوتهم، لا يملكون حق التصرف ببعض الدراهم، أو حق توجيه أطفالهم.

إن هذا الشرط الذي تضعه المرأة لإنشاء الارتباط، من خلال صدّها وتمنّعها، ألا وهو إحكام سلطتها، أخذ يصبح أداة في يد الطامعين بها، للتحايل عليها، فهي لا تطلب من الرجل سوى اعلان

خضوعه. فلماذا لا يعلن ذلك الطامع خضوعه، ليأخذ ما يريد ويتركها بعد ذلك، فماذا تظنه أداة في يدها، يمكن أن تكون أداة ضدها. وأصبح من يريد إخضاع رجلٍ، يفكر في أن يرسل له امرأةً تخضعه.

إن على المرأة أن تعلم، أن ما تظنه سور حمايةٍ لها، من السهل أن يستحيل إلى نقطة أختراقٍ لأمنها. ذلك أنه ليس ثمة من مأمنٍ سوى الصراحة، والتفاهم، والاتفاق، والرضى بحكم الخالق، وبما ميّز به كل جنسٍ، من شخصيةٍ، وموقعٍ، ودورٍ.

مؤتمر بكين

ينقسم الموقف تجاه مؤتمر بكين، ما بين مؤيّدٍ متحمسٍ، يرى فيه خلاصاً للمرأة من مشكلاتها، وما بين معارضٍ متشددٍ، يرى فيه فساداً وانحلالاً لها. فما هي الرؤية الصحيحة لمثل هذا المؤتمر ؟

إن وثيقة المؤتمر قد قررت في البند(٤٣) أن " تمكين المرأة، وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل، هما شرطان أساسيان لتحقيق الامن السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، والبيئي، لدى جميع الشعوب " . وفي هذا حقيقةٌ جوهريةٌ، فالصحيح أنه لا يمكن بحث خلاص المرأة، بمعزلٍ عن خلاص الرجل. فالرجل نفسه يتعرض للفساد، وسوء الاوضاع، وليس من الممكن النهوض باوضاع المرأة، بمعزلٍ عن النهوض باوضاع الرجل. فالمسألة، أو المشكلة، أو الأزمة، لا يمكن تصويرها وتلخيصها، على اعتبار ان هناك رجلاً تقابله امرأةٌ، وأن الأول يضطهد الثانية كما يوحي البند (١١٩).

لقد سيطر الفهم الجنسي " صراع الجنسين " ، على كثيرٍ من الاذهان بالغرب، وحل محل مفهوم الصراع الطبقي، الذي سبق وأن اطلقه ماركس، وثبت فشله لقد اصبح المجتمع في نظر كثيرين ينقسم إلى جنسين متصارعين، وخلاص احدهما يعتمد على انتصاره على الآخر. هذا ما فعله ماركس ولينين على صعيدٍ آخر، هو الصعيد الاقتصادي،

حيث قسّم المجتمع الى مستخدِم (بكسر الدال)، ومستخدَم (بفتح الدال)، الاول: الرأسمالية والثاني: البروليتاريا، واصطدم هذان المفكران بنزوع وميل الفقراء إلى توسيع مشاريعهم، لتنمو ويصبحوا هم بدورهم أصحاب أعمال.

لقد اصبح الناس يحتاجون إلى شيطانٍ ليرجمونه، وهناك من اخترن أن يرجمن الرجل، والنظام الذكري، ناسين أن المجتمع هو كلٌ لا يتجزأ، وأن المرأة قد خلقت لتعيش في أسرةٍ، فيها عددٌ من الذكور همْ الأب، والزوج، والأخ، والابن.. فاصبح الرجل هو العدو، وهو الذي يمارس العنف والتمييز، فهل يراد للمرأة أن تعيش في مدنٍ نسويةٍ، تحكمها أنظمةٌ نسويةٌ، وإذا ما كانت الضرورة تفرض المجتمع الواحد، فهل يمكن معالجة الفساد الذي يتعرض له طرفٌ، دون معالجة الفساد الذي يتعرض له المجتمع ككل ؟

وفي المقابل، نجد من يعتبر مناصرة حرية المرأة، والحفاظ على كرامتها، وحقوقها، وتطوير دورها، فساداً وانحلالاً، يريد الغرب تسويقه في عالمنا الثالث، متجاهلاً أن أحد الأهداف الاستراتيجية، المنصوص عليها في الوثيقة، تدعو إلى تحسين إمكانية حصول المرأة على التدريب المهني، والعلم، والتكنولوجيا، والتعليم المتواصل، وأن البند

(٨٤) يوصي باتخاذ تدابير ايجابيةٍ، تفتح للمرأة مزيداً من فرص الدخول والمشاركة، في المجالات التقنية والعلمية، وصوغ سياسات وبرامج تشجيع المرأة، على المشاركة في كل برامج التمهّن (الاشتغال بالمهن)، واشتراك النساء في القرارات الاقتصادية خصوصاً، عن طريق المنظمات النسائية العاملة على مستوى القواعد الشعبية، ومن خلال مساهمتها في التسويق، والأعمال التجارية، والعلم، والتكنولوجيا.

فهل هذا يتنافى مع الحديث النبوي الشريف، الذي ينص على أن النساء شقائق الرجال، والآية الكريمة التي تقول ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾؟ وهل يتنافى هذا مع مفاهيم، وأسس، التكافل، والتنمية الاجتماعية، التي حرص عليها الإسلام أشد الحرص ؟ أم أن المطلوب هو ترديد هذه المفاهيم كشعاراتٍ، لا علاقة لها بسلوكنا في الحياة اليومية ؟

لقد شهدت الحركة النسوية اساءات للرجل، والمرأة، بل حتى الابناء ايضاً.. فهناك المطالبة باباحة الاجهاض، في كافة الحالات وليس في حالات الضرورة الصحية فقط) وهناك الدعوة الى عدم ربط الجنس بالاسرة والزواج، وهناك المطالبة بحق ابناء الجنس الواحد، بتشكيل أسرةٍ، وتبني الاطفال. ولا شك أن مثل هذه المطالبات،

تشكّل تطرفاً واعتداء على التشكيل الاجتماعي، بما فيه المرأة ولكن هذا التطرف، يجب أن لا يجعلنا ننسحب إلى تطرف مضادٍ، يبعدنا عن نصرة قضية المرأة العادلة. وقد تنبه الفاتيكان إلى أهمية مثل هذا الدور، فقد رأي أهمية أن يتدخل لتعزيز دور الأسرة، فاقترح إضافة نصوص، يشير أحدهما إلى أهمية المرأة في الأسرة، التي تشكل الخلية الأساسية للمجتمع بند (٣٠)، والثاني يؤكد الدور المحوري، الذي يؤديه الدين في حياة ملايين النساء (٣١)، وهناك إشارة واضحة في نص آخر، إلى أن صياغة الاستراتيجيات والسياسات مسؤولية كل بلدٍ، مع الاحترام الكامل لمختلف القيم، الدينية، والاخلاقية، والتقاليد (٩). هذه النصوص لم يجر اعتمادها بعد، ولكنها تقدم مثالاً ايجابياً على مناصرة قضية المرأة، من خلال ربطها بالتكوين الأسري، والفهم الديني.

لطالما كان البشر يفضلون الإجابة بنعم أو لا، وطالما كانوا يحشدون الحشود وراء احدهما، ودفعوا دماءهم، وأبنائهم، وحقوقهم التي من أجلها تحركوا، ثمناً لشعارٍ متطرفٍ.

وقد لخص الاسلام الموقف الحقيقي بـ "الوسط" و "الاعتدال". وهذا لا يعنى الوسطية أو القول بنصف الحق، بل الاعتدال في تعريف مفهوم الحق، وعدم المبالغة والتطرف، وإلا كانت المبالغة في حد ذاتها

اعتداءً، يجرّ سلسلةً من الاعتداءات، والاعتداءات المضادة، وهي أفضل وسيلة لاضاعة الحقوق، حيث يضيّعها صاحبها، تحت شعار العمل من أجلها.

ولو كانت المرأة تعيش أوضاع خيرٍ، وكرامةٍ، ورفاهٍ، لما اعطت اذناً صاغيةً للحلول الخاطئة، ولو كانت هذه الحلول صحيحةً، لشهدنا في تطبيقها الذي تتفاوت درجته، من بلد إلى آخر من بلدان الغرب، خلاصاً.

وبدل الانقسام إلى أحد المعسكرين: معسكر قضية المرأة، ومعسكر أعداء هذه القضية، يجدر بالطرفين البحث عن الحل الحقيقي، لمشاكل المجتمع ككل، وعدم تناسي أو اهمال البعد النسوي فيه. المطلوب هو المشاركة الايجابية، التي تستهدف تقديم ما بحوزتنا من مفاهيم ونظمٍ، إلى ذلك الكائن الذي يحتاجها، ونحتاج نحن اتباعه لها، بعيداً عن الدور التقليدي، الذي اعتدنا أن نمارسه في التقوقع على الذات، ورفض كل من لا يعتمد ما بحوزتنا من مفاهيم، نخفيها نحن عنه، بدل أن نقدّمها، ونسعى لرفد طموحه نحو الخلاص، بالكنوز الاسلامية التي نتغنىّ على العالم بها، وتدنيه في الوقت ذاته على افتقاره إليها.

الهويّـة الجنسيّـة

((الله، والدين، والمفاهيم بشكلٍ عامٍ، ما هي إلا قضايا تخضع لنسبية الاعتقاد، بمعنى أن كل فرد يفهمها كما يشاء، وليس ثمة أي تحديدٍ عامٍ ملزمٍ، سوى الحريّة: حرية الفرد في أن يعيش كما يريد.. لا شيء يقيده، لا شيء يحدّه، لا شيء يلزمة. ما كان في السابق قوانين مقدسة حرّمت كل شيء، من البحث العلمي، إلى مجرّد التفكير، لا مكان له الآن. العصر عصر تحرّر الإنسان من كلّ قيدٍ على فكره، أو سلوكه. ليس هناك ما، أو من، يمكن أن يفرض عليه، سوى حقّه في اتخاذ قراره الفرديّ، الذي يتماشي مع طلباته الفرديّة، والتي تعتبر متعلقة به وحده، ولا شأن للمجتمع، أو الدين، بها)).

هكذا يفكر المجتمع الغربي، ويشكّل معياره البشري. ومن أبرز هذه الحريات، الحرية الجنسية. لقد أصبح المرجع الوحيد، في تقييم السلوك، وخاصة السلوك الجنسي، هو الفرد نفسه. بمعنى أن لا حكم، إلا الرضى الفردي.

من الصحيح أن القوانين العامّة لعصور الظلام، أدّت إلى ردّ الفعل الفردي – النسبي، إلا أن من الصحيح أيضاً، أن ذلك الخطأ قد عولج بهذا الخطأ.. ذلك الضلال البعيد، قد عولج بهذا الضلال البعيد.

فمن اليقين أنّ هناك طبائع عامّةً، بل حتى يمكننا أن نطلق عليها وصف القوانين الشاملة، التي تنظّم سلوك البشر، والكائنات الحيّة الأخرى من تلك الأساسيات، أنّ البشر، ومعظم الكائنات الحيّة، تنقسم إلى ذكر وأنثى، يرتبطان بعلاقة زوجيّة، بلتحم فيها الجنس بالتناسل، وينتهي إلى إعادة إنتاج الحياة.

هذا، إلا أنّ المفهوم الغربي المعتمد والذي يشكّل معيار تلك المجتمعات السلوكيّ وحتى التشريعيّ، يمكن تلخيصه في القاعدة التالية: (إنّ الدور الجنسي مسألة تنفصل تماماً عن الدور التناسلي، وكذلك فإن الدور الجنسي مفهوم يقرّره كلّ فردٍ كما يشاء). بمعنى أن ليس هناك طبيعةً عامةً، ومعياراً موحّداً، سوى أن كلّ فرد يقرر دوره الجنسي، وبشكل ينفصل كل الانفصال، عن الهدف التناسلي للوظيفة الجنسية.

لقد أصبح من حق الفرد أن يطالب، بل وأن يشرّع، حقه في الارتباط الجنسي المثلي. بمعنى أنّ الرجل، اصبح من حقه الارتباط الزوجي، برجلٍ آخر، والمرأة بامرأةٍ أخرى، وأن يعتبر هذا الارتباط أسرةً طبيعيةً. وأن تعتبر هذه العلاقة شرعيةً وقانونيةً، بمعنى أن تدخل منهاج التعليم الجنسي في المدارس، وأن تكيف وفقها قوانين الإرث،

بمعنى أن يرث الرجل زوجه، والمرأة زوجتها. وأن يحق للأسرة المثلية (رجلان معاً، أو امرأتان معاً) أن تتبنىّ الأطفال، للتعويض عن عجزها التناسلي.

لقد بلغ مفهوم الحرية، حدّ حرية الشذوذ، وبلغ حدّ الشذوذ، التشريع، فماذا بعد ذلك ؟ لقد ظهر ما هو أبعد من ذلك ؟ إن النتيجة الطبيعية لما سبق، هو أن يحق للرجل أو المرأة التساؤل: (ما هو الدور الذكري ؟ وما هو الأنثوي ؟ من قسّمنا إلى ذكور وإناث ؟ ومن حدّد لنا مسبقاً الشخصية الجنسية التي علينا اتخاذها ؟ يحق لرجل أن يمارس دوراً انثوياً، ما دام يرتاح إلى ذلك ؟ ويحق للمرأة أن تمارس دوراً ذكرياً، ما دامت ترتاح إلى ذلك).

إن آخر ما قد يطرح وبقوةٍ في الغرب، هو أن ثمة فارقاً أساسياً بين التكوين والهوية، حيث يكون التكوين مفروضاً على المرء، في حين تكون الهوية اختيارية، بمعنى أن من تمام التحرر، أن يستطيع المرء أن يغير التكوين، ليتلائم مع الهوية التي يختارها لنفسه.

وهذا يعني أن من حق الرجل أن يسلك سلوكاً أنثوياً، وأن من حق المرأة أن تسلك سلوكاً ذكرياً، وحق الهوية لا يقف عند حد السلوك، بل يتعداه إلى تغيير التكوين. وهذا يعني أن من حق الرجل أن يصبح

امرأة، وأن من حق المرأة أن تصبح رجلاً.

لا ينتهي الامر عند حرية اختيار الدور الجنسي، وتشريعها، بل يتعداه الى التكوين العضوي. ...إن الشخص الذي يمارس دوراً جنسياً، يتعارض مع تكوينه، سوف يشعر بالتناقض. إنه رجل، ويسلك سلوكاً انثوياً، أو أنها امرأة وتسلك سلوكاً ذكرياً. إن الجسد تحديد، وأصبح الشخص المثلي يعتبر نفسه أسيراً في جسده، إنه رجل من حيث الجسد، لا الروح، او النفسية أو الشخصية، وإنه يحتاج إلى أن يغير جسده، بما يتلائم مع شخصيته الجنسية، التي يعتبرها حقيقية، بحيث يصبح امرأة، فكراً. وسلوكاً، وجسداً. وكذلك المرأة، تعتبر أن من حقها، أن يقبل المجتمع باختيارها لدور الرجل الجنسي، بحيث يعاملها كرجلٍ، فكراً وسلوكاً، وجسداً. وظهر مفهوم "التحول الجنسي TRANSEX " .

آخر مفهوم للهوية الجنسية هو تغيير الجسد، بما يتلائم مع الذهن. وما هو ابعدمن الأسف، ان بعض الاطباء اقرّوا ذلك الحق، وإن اشترطوا اصرار المتحول عليه، فذلك ليضمنوا عدم تراجعه فيما بعد، ومقاضاته لهم، على نزوةٍ منه استغلوها. أصبح الجراحون يجرون عمليّات للتحوّل الجنسي، وكأن من يزيل أعضاءه التناسلية الخاصة

لجنسه، ويستبدلها بأعضاء صناعية، تشابه ما يخصّ الجنس الآخر، يكون قد غيّر جسده، بما يتلائم مع طموحه الجنسي، فأيّ نساءٍ صنع أولئك الرجالِ من أنفسهم ؟ وأي رجالٍ صنعت تلك النسوة من أنفسهن.

وأخذت هذه الظاهرة تغزو المجتمعات الإسلامية، والعربية، وأخذ يظهر هناك متحوّلون، من بين صفوف المسلمين والعرب. وأخذت تظهر المقابلات الصحفية معهم، والتغطيات الصحفية عنهم. المسألة أبعد بكثيرٍ من الهجوم على التقليد، أو الوعظ المتعارف عليه، أو بث الشجون،... إلى آخره ذلك من القول الذي اعتاد أن يخرج به المتزمتون.

إنّ المسألة هي تبيان أفقٍ: ما يجري (هنا وهناك)، وما هي دائرة الصراع الجديدة (الجنسية الغيريّة ضد المثليّة)، ودعوةٌ لكل مؤمنٍ بالله، أو بالنظام الطبيعي، إلى أخذ موقعه في هذا الصراع، قبل أن نشهد تطوّر الشذوذ إلى سلطة، أو بكلماتٍ أخرى "دولة الجنسية المثلية".

الحقيقة

شهدت العصور الحديثة، ظهور افكارٍ جديدةٍ، تعارض معارضةً كلية ما كان سائداً من مسلماتٍ، وربما كانت العلوم الطبيعية، هي أول من فتح ذلك الباب، الذي بقي مقفلاً لقرون وقرون، فخرج العقل البشري ليتنفس الهواء الطلق، وينعم بضوء الشمس، بعد أن كان حبيس قيودٍ ومسلماتٍ، لا تقبل الجدل، أو النقاش.

منذ أن اصبحت الارض تدور حول الشمس - في وعي البشر، اصبحت كل الحقائق والمسلمات، أو ما كان يعتبر كذلك، يدور وأصبح كل شيء موضع تساؤلٍ، وشكٍ، وريبةٍ. لم يعد الفرد يقبل بفكرةٍ، أو مفهومٍ ما، على أنه بديهيةٌ بل، اضحت كل بديهيةٍ، بحاجة إلى تمحيصٍ واثباتٍ، حتى يتم اعتناقها والمناداة بها.

ثورة الشك هذه، كانت ايجابيةً وبناءةً بالتأكيد، حيث أنها أخرجت العالم من ظلامٍ، وجهلٍ، وتخلّفٍ، سيطرت على مدى قرون عديدةٍ، واخرجت إلى النور قوىً كانت فاعلة في الظلام، وكان الانسان يتصرف، على اعتبار أنها غير موجودةٍ، طالما أنه لا يدركها، ويكشفها. كشفت عن القوانين التي تحكم وجود الانسان، وكيانه، ووضعت هذه القوانين، ضمن مجال سيطرة الانسان، وفعله، وتدخّله.

لكن هذا ليس كل شيءٍ، فالمسألة كانت أكبر من أي تلخيصٍ،

وشهدت تعايش الهدم والبناء، في فعالية معولٍ واحدٍ، فنور العقل الذي عمّ، وبدّد ظلام مسلمات القرون الوسطى، اعتمد على قواه الذاتية، ولم يوجه نظره إلا نحو ما يمكن أن يشكل أساساً يقينيا، لا يمكن أن يختلف عليه اثنان، فكان أن اعتمد البرهان المادي والتجربة.

صحيح أن هذا المنهج هو منهج العلوم الطبيعية، والتي لا تقر بحقيقةٍ دون أن يمكن اثباتها في المختبر المغلق أو المفتوح، لكن العلوم الانسانية ايضاً، اخذت تحاول الاستفادة، من منهج العلوم الطبيعية، لتطبقّه على دراستها للفرد والمجتمع، فكانت محاولاتٍ رائدةً، إلا أنها لم ولن تستطيع التعامل مع الظاهرة الانسانية، استناداً إلى التجربة والمختبر وحدهما. هنالك أبعادٌ أساسيةٌ لا يطالها هذا المدخل، والجميع حتى دعاة المنهج العلمي، ينطلقون من هذا الفراغ، محاولين سدّه بافتراضاتٍ تدّعي العلمية، ولا تبلغها.

نتيجة ذلك الشك، وتلك الاكتشافات العظيمة، وذلك الفراغ في الميدان الانساني، سيطر مفهوم النسبية على مناطق الوجود والسلوك البشري. لم يعد هنالك حقائق عامةٌ أو كليةٌ، يمكن التوصل اليها بالتحليل العقلي، ولم يعد هنالك ما يمكن أن يتفق عليه الجميع، فاصبح كل شيءٍ، موضع رأيٍ، لا موضع يقينٍ حقيقيٍ. بل الحقيقة

نفسها لم يعد لها كيانٌ موضوعيٌ مستقلٌ، عن ادراك الانسان لها، فاصبحت الحقيقة ما يعتبره المرء حقيقةً وليس لها صفة العمومية، واصبح من غبر المقبول أن نقول أن هذا صحيح، وذاك خطأ، بل اصبح مثل هذا القول يفتقر إلى الشرعية. الشرعية الاجتماعية تقول بأن هذا صحيح بالنسبة لفردٍ معينٍ، وقد يكون خطأ بالنسبة إلى آخر. الحقيقة اصبحت لا وجود لها، واحتل مكانها الرأي، ولبس ثوبها معلناً ذاته. باعتباره الحقيقة، التي يتوصل اليها فرد من الافراد.

صحيح أن لكل فرد رأيٌ وقد يتفق مع غيره، وقد يختلف، لكن يبقى هنالك وجودٌ للحقيقة العامة، مستقلٌ عن رأي الافراد، ويبقى الرأي محاولة للتوصل إلى تلك الحقيقة، لا يحق لها أن تحل محل الحقيقة ذاتها. ليست الحقيقة نسبيةٌ، وليس لكل فرد حقيقته، وليس المختبر هو الحكم الوحيد، فيما يتعلق بالظواهر الانسانية، التي لا يمكن اخضاعها للتجارب العلمية، بهدف التيقن من احكامنا بشأنها.

في نفس الوقت، الذي ثار فيه العقل على المسلمات، فقد قواه التحليلية أمام التجربة. لقد وجد نفسه عاجزاً امام مسألة الوجود فاحتكم إلى المشاهَد. ألا وهو المادة والتجربة. في نفس الوقت الذي اعلن فيه العقل سيادته على الكون، ركع أمام جبروت المادة، ولم يثق

بقواه التحليلية، كطريقٍ للوصول إلى الحقيقة. وعندما لم تأته المادة بالاجابة، وبقيت الطبيعة صامتةً، ورأى أنه لا يمكن اتفاق البشر على رأيٍ واحدٍ، خرجت كلمة الحقيقة الموضوعية من قاموسه، واصبحت مسألة نسبيّة تختلف من فردٍ إلى آخر، وبدل أن يعتبر أن هناك آراء، اصبح يعتبر أن هناك حقائق، واصبح كل فردٍ يعيش ما يحلو له من حقيقةٍ، ولا يحق لاحد ان يقول له انت مخطئٌ، فالصواب هو ما تراه صواباً، وليس هناك ما يمكن أن يعلو على التجربة، حتى ظهرت مدارس تنادي، بأنه لا يحق لك نفي مفهومٍ، أو فكرةٍ، قبل ان تجربها.

لكن كما كانت الارض تدور حول الشمس، رغم ادعاء كل الناس، أو معظمهم، في فترةٍ ما، بأن الشمس هي التي تدور حول الارض، كذلك تبقى الحقيقة العامة موجودةً، حتى لو قال الانسان بغيابها. وما لا يمكن للانسان التوصّل إليه بالتجربة، يمكن له أن يتوصل إليه بالتحليل العقلي، نعم التحليل العقلي، هو ما يفتقر إليه دعاة العقل، حين احتكموا للتجربة، واختلاف التحليلات العقلية، يعني اختلاف الآراء، لا اختلاف الحقائق.

العقل والإيمان

يسيطر على الناس وهم الإعتقاد، بأن ا لفكر والدين، العقل والإيمان، أمران مختلفان، بل ومتعارضان، ولا امكانية للتعايش بينهما، فإما أن تنقاد انقياداً لا واعٍ، وتصبح من انصار الدين- حسب ظنهم، و إما أن تفكر، وتشك، وتتساءل، وتحاول ان تتعقل، فتصبح- حسب ظنهم أيضاً من المعسكر الآخر المناور للدين، فنجد الكثيرين من انصار الدين يناصرونه على اعتبا أنه محض اتباع لا مكان للعقل فيه ونجد معظم من يعارضونه يعارضونه لانهم يظنون أنه محض اتباع يفرض على عقولهم حالة من الجمود والانغلاق لا فكاك منها.

ان الدين بم ينكر دور العقل في يوم من الايام واذا كان بعض من انصار الدين انكروا العقل فليس من المقبول ان نرجع في فهمنا وتقديرنا لحكم الدين اليهم بدل الرجوع الى كتاب الله سبحانه وتعالى ونستمع الى قوله الحكيم بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وبأن في آياته تذكرة وعبرة لأولي الألباب. لقد ةصف الله سبحانه وتعالى الكفار بأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ومن الواضح ان المقصود بكلمة القلب باطن الانسان الذي وظيفته التعقل وهوما نسميه بلغة العصر الدماغ الذي وظيفته ان يفكر.

ووصف المؤمنين بأنهم يستمعون للقول فيتبعون أحسنه وظن البعض بأن المقصود بالقول هنا القرآن الكريم لكن مثل هذا الظن

مخطىء فلا يجوز ان يستمع لكلام الله بهدف اتباع احسنه حيث ان كل كلامه حسن يجب اتباعه.

لكن المقصود بالقول هو الحوار أو الجدل العقلي أو التيارات الفكرية أو المواقف الحياتية ميزة المؤمن هو أنه يصغي وبكلمات أخرى يطلع على وجهات النظر المختلفة فيفكر بها ليرى احقية كل مها ويختار التوجه المحق. المؤمن اذن يتبع عن وعي وادراك وتبصر وتمحيص لمختلف وجهات النظر. ترى هل نتبع هذا الحكم الرباني في حياتنا وفي اسلوب انتهاجنا للمواقف والتوجيهات التي نختارها ؟

والعقل ايضا لا ينكر الدين الا اذا كان هناك خلل في عملية التعقل أو في فهم الدين فالعقل يطلب الحق والصالح العام والدالة ويطلب المعرفة واليقين ويبحث عن الاتجاه الصحيح وليس بمقدوره وحده أ، يجيب على ما لديه من تطلعات وليس سوى خالقه الذي هو اقرب اليه من حبل تلوريد ادرى بحاجاته ومصالحه وقادر علة ان يهديه. من اخلص استحق باخلاصه الهداية اما من سعى في سبيل اطماعه فلا هداية له وهذا هة معنى ان الله يهدي من يشاء وليس افرادادون اخرين لشكلهم أو لما لهم أو لأي سبب عدا الحق الذي شكل محور الرسالة الربانية.

والعقل اذا ما تجرد عن اطماعه قادر على استيعاب الرسالة الربانية

حيث ان الله ارسل للانسان ما يستطيع هذا الانسان ان يستوعبه ولم يكلفه بما لا طاقة له به.

ولنا في مثال ابراهيم عليه السلام وحيرته وشكه وبحثه عن الربوبية خير مثال كلنا يعرف تنقل عقل ابراهيم من الشمس الى القمر ليجد في كلمنهما النقص والبعد عن صفات الربوبية ثم انتهى الى ان الله سبحانه وتعالى هو الاقدر على الوصول الى عبده وليس العبد بالقادر على الوصول بفكره الى ربه ان لم يقم ربه بهدايته وان هذا يحدد دور العقل وحاجته الماسة الى هداية ربه ولا يتضمن انتقاصاً للانسان الذي يبحث ويحاول ان يتعقل ويتحرى الحقيقة فكان ان اتخذ الله ابراهيم خليلاً.

يجب أن لا نقع في تفكيرنا اسرى للتطرف والمغالات بحيث نقبل الفصل بين العقل وبين الدين بين الفكر وبين الايمان وكثيراً ما نجد من يبرر هذا الفصل تحت ذريعة الحفاظ على احدهما من شوائب الاخر فنرى نصير الدين يخشى ان يحرفه الفكر أو يخرجه عن دينه ونرى نصير العقل يخشى ان يحول الدين بينه وبين تعقله وسعيه في سبيل الحقيقة.

ان الله سبحانه وتعالى عندما يوجه كلامه الى الانسان فانه يخاطب فيه عقله وحسن تفكيره واخلاصه في تحري الحقيقة وطلب الحق لو

تأملنا كلام الله سبحانه وتعالى لوجدناه مخاطبة لهذا العقل وهداية له وهداية الله للعقل لا تعنى ان العقل عاجز وان المطلوب منه التوقف عن العمل بل الله يريد لهذا العقل ان يعمل وهدايته له توجيهه لعمله وفعالياته لا منعاً لها فكما ان الرزق الرباني ثمرة للعمل والسعي فان الهداية ثمرة للفكر واعمال العقل.

وإذا ما فهم الدين من خلال هذا المنظور لا يعود هناك مبرر لنصير الفكر في ان يخشى من الدين فالدين يأمره ان يفكر ويبحث ويطلع ويستمع ويحكم عقله في قرارة نفسه بان الحياة من غير ايمان ديني عبث ولا معقول وهو يعرف اكثر من غيره حاجته الى رب يهديه وينير له طريقه والله سبحانه وتعالى كلف من وصلته رسالته بمن لم تصله الرسالة ترى هل قدمنا مثلاً سلبياً يشجعهم على المضي بعيداً عن الدين ؟

عندما يقول انصار الفكر ان الدين والفكر لا يجتمعان، ترى هل نحن نموذج هذا الفراق ؟ وعندما نقول ان الاسلام هو دين العقل، فهل نشكل نموذجاً لهذا العقل ؟ هذه اسئلة لا بد لنا منها ان اردنا وجه الله سبحانه وتعالى وان حرصنا على نيل رضاه فالدنيا دار سعي والفكر أول خطوات السعي لأن العمل بدون فكر يصبح كالحرث في البحر.

الأساس أولاً

إن الأساس الذي يستند إليه أكثر أصحاب الأديان، يتفق مع الأساس الذي يستند إليه أصحاب التوجّهات المادية، وكذلك العلمانية. فهم جميعاً ينظرون إلى حياة الانسان باعتبارها واحدةً، ولا خلاف بين فردٍ وآخر، إلا في الانتماء المذهبيّ، أو ما قد يسمونه الأخلاقيّ، ويلخصون ذلك في الابتعاد عن بعض "المحرّمات".

ينتج عن ذلك أنّ سلوك الانسان في تسيير شؤون حياته أمرٌ واحدٌ، ومشتركٌ، يتفق عليه الجميع، ويبقى لكل فرد بعد ذلك خصوصيته المذهبية. ومن هذا الأساس نشأ "الفهم النظاميّ"، بمعنى معالجة شؤون الحياة كمجموعٍ بشريٍ، على النطاق القوميّ، أو العالميّ من خلال "نظامٍ".

وفي الردّ على أصحاب الأنظمة "الوطنية"، أو "الليبرالية"، أو الاشتراكية"، خرج البعض بفكرة النظام "الاسلامي"، كمعالجةٍ نظاميةٍ تستند إلى الإنحياز الإسلامي. ومثل هذا الفهم لا يرمي إلى ما هو أبعد من صياغة التحريمات، في تشريعاتٍ قانونيةٍ وضعيةٍ،وإلباسها رداءً سماوياً. فالأساس في المعالجة الدينية للحياة البشرية، هي معتقد الفرد : ما الحيز الذي يقدمه كل فردٍ لله عز وجل، في حياته اليومية ؟ وعلى الاساس الاعتقادي يتم انشاء القوانين

النظامية، ولا يمكن، بأي حال من الأحوال، التعامل مع الدين باعتباره نظاماً مجرداً.

أما القول بأن الإعتقاد موجودٌ، ولا يبقى سوى تأطيره تأطيراً نظامياً، فهو قولٌ يجهل كل الجهل حقيقة الاعتقاد، ذلك أن التوارث وحده، عنصرٌ لا يمكن أن يكون كافياً، لتشكيل هويةٍ اعتقاديةٍ، ولنا في قول الخالق سبحانه وتعالى " قالت الاعراب آمنا. قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم "، كل عبرةٍ لا يمكن أن نعتبر أي وضعٍ نظاميٍ، حتى لو رفع شعاراتٍ إسلاميةً، مجتمعاً إسلامياً، إذا لم تسد في أوساط مواطنية الروح والمفاهيم الإسلامية الحقيقية، الا إذا كنا نستبدل " اسلام المؤمن " بـ " اسلام الاعراب " هل يمكن ان يعالج تشريعٌ اسلاميٌ، وضع أُناسٍ لا يحملون اعتقاداً به ؟

إذا كان الحديث النبوي يكفّر من غش، " من غشنا فليس منا "، فكم يخرج هذا الحديث من أبناء الامة، من بين صفوفها ؟ وإذا كان أكثر الناس يردّون من يأتيهم طلباً للزواج، طمعاً في حطام الدنيا الفاني ؟ وإذا كانت مفاهيم التضامن والتكافل، لا تخرج عن اطار مجاملات " الدعوات المتبادلة " ؟ وإذا كان السهر على التفقّه في كتاب

الله الكريم وأحكامه، يعتبر من واجبات طلبة الشريعة ؟ وإذا كان يسود الاعتقاد، بأن نزوع الفرد لأن يضحيّ بمصلحته الفردية، في سبيل الامة، ضرب من الانحراف ؟ إذا كان كل هذا، وكثيرٌ مثله، سائداً، فهل يمكن معالجة امور المجتمع البشري معالجةً نظاميةً، أيا كان النظام الذي يميل اليه الناس، في منطقة أو أخرى ؟ إن شئنا، فالعقل يقول أن الاعتقاد لا يمكن إلا وأن يغير، من طبيعة حياة الفرد والمجتمع، وأن ما لا يغير منهما ليس اعتقاداً ... وإن ابينا، فامامنا تشكيلة كبيرة من الانظمة، للمفاضلة بينها، لمن يريد أن يشيد صرحاً، لا أساس له.

الأصولية

الكتاب: الأصولية المعاصرة أسبابها ومظاهرها.

المؤلف: روجيه غارودي.

المترجم: خليل أحمد خليل.

الناشر: دار عام الفين - باريس.

التاريخ: ١٩٩٢ .

الكتاب: الأصولية بين الغرب والإسلام.

المؤلف: د. محمد عمارة.

الناشر: دار الشروق - القاهرة.

التاريخ ١٩٩٨ .

ظهرت تسمية "الأصولية"، واحتار العالم فيها، ذلك أنه في حيرةٍ، تجاه الظاهرة الدينية الحديثة، أصلاً وبين المدارس، يمكننا أن نلمس تجاذباً بين قطبين، يلخّصهما كتابان، هما المشار إليهما، يقدّمان منظورين متطرّفين ومتعارضين، لفهم هذه الظاهرة.

يعرف غارودي الاصولية، من خلال تبيان مكوناتها الاساسية الثلاثة: أولاً، الجمود، "رفض التكيف"، "جمود معارض لكل نمو، لكل تطور". ثانياً: العودة الى الماضي، "الانتساب الى التراث" "المحافظة". ثالثاً: عدم التسامح، الانغلاق، "التحجر المذهبي"، "تصلّب"، "كفاح"، "عناد". (١٣) ضمن هذه الرؤية شديدة العمومية، يبدو في عيني غارودي، كل اتجاهٍ اصولياً: من فلسفة التنوير إلى "سان سيمون"، من "ستيورات ميل" إلى "اوغست كونت"، من "نابليون" إلى "هتلر"، وكذلك استعمال اميركا لحق النقض، او فرنسة الجزائر.

وفيما يتعلق بالعالم الاسلامي، يعيد غارودي الظاهرة الى تفوق الغرب وانحلاله. أنه يعيد الحركة الاسلامية الحديثة الى حضارة الغرب، ويعالج اشكالات هذه الحركة، من خلال مناقشته لسياسة فرنسا تجاه المهاجرين، ومطالب البنك الدولي من دول العالم الثالث. صحيح ان هناك دائماً علاقة بين البنية الداخلية لأي مجتمعٍ، وعلاقاته

الخارجية، إلا أن هذا لا يعني انكار المنبت الداخلي، للظواهر التي يعيشها العالم الثالث، واعتبارها مجرد انعكاسٍ لعلاقاته الخارجية، مهما بلغت هذه العلاقات من القوة والتأثير. لقد قاده الحديث عن اميركا اللاتينية، إلى تناول مسألةٍ جوهريةٍ، بالنسبة للفهم الديني، ألا وهي موقف الفرد، حيث اعاد المؤلف الخلل هناك، إلى العلاقة مع اميركا، مما اضطر احد المفكرين المسيحيين للرد عليه، مبيناً أن هناك "تكاسل لدى البعض، وهجران للأرض، أو الادمان على الكحول، والنفقات غير اللازمة والمبالغ فيها ... " (٤٣). ويبدو موقفه غير منطقي، بشكل أكثر وضوحاً، عندما يتعرض للسياسة، فيعمد الى تبريرها ورد كل الظواهر اليها في اميركا اللاتينية، والهجوم عليها واعتبارها غير ذات علاقة، عند الحديث عن قارة أخرى.

ويتعمق اللامنطق، عند دفاعه عن الأديان القديمة لاميركا اللاتينية، أو افريقيا، وينسى أن الانتماء إلى تلك الأديان المغرقة في القدم، يشكّل في حد ذاته محافظةً وأصوليةً. إنه أيضاً ينسى، وبشكل كلي، عالمية العقيدة، وأن عقيدتي المسيحية والاسلام، متقدمتان على تلك الديانات، وأن لهما دوراً عالمياً تمارسانه في تلك القارة.

انه اسير نسبيةٍ مطلقةٍ، مغرقةٍ في الرؤية الفردية، تلك النسبية التي استمدها من المفكر الفرنسي "جان بول سارتر"، وطرحها في كتابه

" البديل " ، ولم يزل وفياً لها حتى الان. لقد اعلن حرباً شعواء على اي يقينٍ، أو تعميمٍ فكريٍ، بناء على نسبيةٍ، نسي ما اعلن انتماءه اليه في غمارها. لقد جعل من هذه النسبية يقيناً وعمّمه. جعل منها قاعدة مطلقةً، يحاكم الجميع استناداً إليها. أنه لم يطبّق مفهومه النقدي، على التعميم الفكري الذي يطلقه، ولو فعل لما كتب ما كتب.

إنه ايضاً اسير الماركسية " السابقة " ، فلا زال يميز ماركس عن مفكري التراث الانساني العالمي، ويعتبر أن فكره كان نقدياً، رغم معرفته التامة، بما دعا اليه هذا المفكر من اختزالٍ للحياة الاجتماعية – الحضارية ضمن رؤيةٍ اقتصاديةٍ محضةٍ. يقول غارودي: " المذهبية تقوم على وهم، أو على زعم الاستقرار في الكائن، واعلان حقيقته المطلقة ؟ " ولنا أن نسأل هنا: " ألم يعلن ماركس استقراراً ويقيناً علمياً لفكره ؟ ألم يفعل غارودي نفسه ذلك ؟ انه يريدنا ان نعتبر افكارنا تأكيداً ظرفياً متناسباً مع معارفنا، ومع تجاربنا الآنية، وأن نحس لسعة نار الاصولية، في أي يقينٍ أو ثقة بأفكارنا، فكيف يدعو في نفس الوقت، إلى عقيدةٍ كالاسلام، يستحيل تشييد مفاهيمها، على أساسٍ من التجريبية والنسبية الزمنية ؟

بدلاً من الغرق في متاهة افكار اليمين الفرنسي، من أجل التوصل إلى مرجعية للاصولية، كان عليه البحث في روح منع الاجتهاد، وإدانة

كل جديدٍ باعتباره بدعةً، تلك الظاهرة المتأصلة في تاريخ البشر، كل البشر، وليست ناشئةً عن تفوق أمةٍ على اخرى. ولو رجعنا إلى بداية الدعوة الاسلامية لو جدنا أن أول ردٍ عليها كان "هذا ما وجدنا عليه آباءنا.." .

ثمة فارقٌ اساسيٌ بين التمسك بالاصل، والعودة اليه بعيداً عن كل انحرافٍ وتشويهٍ، وبين التمسك الحرفي بالقديم، لمجرد قدمه. وهنا يتأكد دور "فقه التحرير" الذي يدعو إليه غارودي، في أن يقيم التمييز، وأن يبني الفارق. أن قدم الحقيقة لا ينفي صحتها، فلو اعتبر الغرب أفكار اليونانيين وحضارتهم أصولاً قديمةً، لما نشأت الديمقراطية الحديثة، ومفاهيم حقوق الانسان، والتي منها يشتق غارودي افكاره. الانسان ليس بحاجة إلى "موضة" "فكرية" تطرح في الأسواق كل عامٍ، حتى يبرهن على تجدده، وعدم أصوليته، وليست خصوصية كل بلدٍ بحاجة إلى "موضةٍ" فكريةٍ تخصها، حتى تثبت ذاتها وهويتها الوطنية، في دينٍ خاصٍ.

من خلال مناقشته للمعطيات العصرية، يثير المؤلف اكثر من لبسٍ، وأكثر من تساؤل: فمن خلال حديثه عن الشركات متعددة الجنسيات، والقنبلة الذرية، يحاول أن يصل إلى أن القرآن دعوة دينية واخلاقية، وليس قانوناً فقهياً (٨٧) وبنفس الروح يجرد السنة من دورها وأهميتها (٨٣).

لا بد من الاشارة الى الصحة الجزئية لكثير من اطروحاته، لكننا امام كوم من الافكار والاراء والمفاهيم، غير المترابطة، والتي اختلط فيها الغث بالسمين. واتجه سياق هذا كله، إلى الخوض في تفاصيل الحياة اليومية الغربية، بدل البحث الجاد المعمق، في المدارس الاسلامية المختلفة، وبدل كيل الاتهام للنازية قديمها وجديدها، كان الاحرى به ان يتوسع في تحليل جدل القديم والجديد، الماضي والمستقبل، السلف والخلف... لقد جعل من كل شيء اصولية، بحيث لم يعد القارىء يرى، بعد كتابة هذا، الا اصوليةً تحيط بالعالم وتهدد بابتلاعه. إن تضخيم القضية، ورد كل الظواهر إليها، لا يؤدي الا الى محو حدودها، وبالتالي العجز امامها.

مقابل هذا الطرح، يوجه د. محمد عمارة نقده اللاذع لغارودي، لكن من خلال منظورٍ متطرفٍ هو الآخر.. منظورٌ ينكر أن ثمة اصوليةً في العالم الاسلامي، حيث يبدأ رده بالقول ان " المصطلح غربي... ولأصله العربي، ومعانيه الاسلامية، مضامين ومفاهيم أخرى مغايرة.. " (٥). ولا داعي هنا، لشرحٍ مسهبٍ، من اجل توضيح أن الموضوع، ليس كلمة ذات استعمالاتٍ مختلفةٍ في كل لغة، بل في المعنى الدلالي المقصود، والمعرف في الكتاب، والذي هو واحدٌ وعامٌ وعالميٌ. بعد ذلك يصرف عمارة حديثه عن التسمية، لينتقل إلى الدلالة، فيؤكد أن ليس ثمة اصوليةً، بين تيارات الفكر الاسلامي المختلفة، القديم

منها والحديث ، فيقول: "ان حقيقة الجواب عن هذا السؤال هي النفي القاطع والأكيد (١٠).

في نفس الوقت، فان عمارة يركز على محاولة غارودي تبرئة ماركس، من معارضته للدين، وإلى "انحيازه إلى المفهوم الدنيوي الخالص للفقه والقانون، ذلك الذي جعله يجرد الشريعة الالهية من الفقه والقانون بدعوى انها شريعةٌ اخلاقيةٌ، وانحيازه إلى القول بتاريخية وتاريخية الاحكام القرآنية". (٨٦ - ٨٧)

وينتهي عمارة الى نقد مفهوم الحوار لدى غارودي، مركزاً على أن الوحدانية تخص الخالق، والتعدد سنته في خلقه (٧٢). وهنا تكمن مفارقتين هامتين: صحيح أن الله لم يخلق ما خلق دون احكام مسبق، لكن هل يعني هذا ان التفرّق مطلوب، وان انقسام البشر إلى اطرافٍ مختلفةٍ، في حد ذاته غايةٌ ؟" والثانية: أن عمارة يقع، دون أن ينتبه في الشرك، فغارودي لا يدعو إلى اندماجٍ منسجمٍ ومتناسقٍ، بل حوارٍ لا يقوم الا اذا كان هناك ذلك التعددٍ، والقبولٍ به لدرجة تكريسه، وبدون هذين الشرطين ليس ثمة حواريةٌ غارودية.

من منطلقة الرافض، يتهم عمارة دعوة الحوار تلك، بالانحياز لتصورات لن تخدم الا قوى الهيمنة (٨٧). أن فهم عمارة لـ "وسطية الاسلام"، الذي يعبّر عنه في التعددية المؤسسة على الخصوصيات

(٧٨)، لا يشكل الرد الحقيقي والصحيح على حوارية غارودي، التي تطالب الكل بان يعيد النظر في معتقداته الخاصة به. ان اعادة النظر امرٌ واجبٌ، الا انها يجب ان تتم من خلال السعي نحو الحقيقة، لا من خلال هدفية الاندماج بالآخر، بعد تكريس اختلافه. هذه الذات المندمجة، لاحظها عمارة بشكل واضح، وان لم يتمكن من مساجلتها المساجلة المطلوبة. ان الحوار لا بد منه، لكنه لن يتأتي عبر ذلك المنظور الاندماجي، بل عبر عمليةٍ تنويريةٍ تنحاز الى الحق، وتسعى الى اللقاء مع اي ذات اخرى على ارضه، بل إن الذات تعرّف نفسها من خلال هذا الحق، الذي يستحيل هويةً لها.

خلاصة القول: ان الاصولية موجودة هنا وهناك، الآن وسابقاً، لكنها لا تنحصر ضمن توجهٍ فكريٍ محددٍ، بقدر ما تنشأ ضمن أي اتجاهٍ، بناءً على ما يريده حامل هذا الفكر، وما يفهمه من فكره، والمخرج لن يكون بتعميم هذه الظاهرة، كما لن يكون بانكار وجودها، بل من خلال عمليةٍ تنويريةٍ، قادرةٍ على التفاعل الصحيح مع الآخرين، بما في ذلك الحوار مع كثير منهم. ان الوسط الاسلامي ليس "حلاً وسطاً" أو "ترضيةً" بين خصمين، بل هو انحياز كليٌ الى الحق، الذي يعرفه الاسلام بالاعتدال.

وعبر كتابه، وفي أكثر من موقع، يوجه عمارة إلى غارودي تهمة أنه

يعتبر كل ما هو غير علماني عبارة عن "سرطانات أصولية"، وذلك من خلال تحليله لتعريف غارودي للأصولية، عبر قوله: "انها التي تكون نقبض العلمانية" (٤١). العلمانية، هي الاخرى اضحت موضع صراعٍ، بين هذين المنظورين المتطرفين، فبشكلٍ مباشرٍ أو غيرمباشرٍ، نجد غارودي يعتبرها نزعةً تنويريةً عقلانيةً، بل ومعياريةً، في حين يفرد لها عمارة موقعاً على خارطة الاصولية، لإنتسابها إلى التراث اللاديني - والاغريقي منه خاصة" (٢٣). ولو تأملنا وجهتي النظر هاتين، فان ما تأتي به كل منها، يحوي قدراً لا بأس به من الحقيقة، فالعلمانية يمكنها أن تكون توجهاً انسانياً عقلانياً تنويرياً، يلتقي مع الدين، ويمكنها أن تكون نزعةً اصوليةً - وضعيةً لاهم لها سوى ممارسة الحرب ضده. المسألة في هذه الحالة، كما في كثير غيرها، لا ترجع الى معطيات الفكر، بل الى ذات العارف. ماذا يقصد من خلال توجهه الفكري، اولاً ؟ وماذا يفهم، هو نفسه منه ثانياً ؟

وأخيراً، وليس آخراً، لا بد من الاشادة بالمجهود الذي بذله د. محمد عمارة، في سبيل تبيان ان من يتمسك بثوابت معتقدة الاسلامي، يجب أن يسمى اسلامياً لا اصولياً.. في سبيل كشف اللبس والوصول الى الحق.. لكن الموضوع لن يستوفي حقه في كتابين.

العربة والحصان

انهارت المؤسسة الشرقية الكبرى، وانهارت معها الأحلام العظيمة بتصحيح خط المسيرة الديمقراطية العالمية، من خلال حلقةٍ اجتماعية، تكمّل الحلقة السياسية التي حققت هدفها المباشر، وقصّرت عن تحقيق حلم الانسانية بمدينة فاضلة. هذا الانهيار يضع الشباب امام فراغ فكريٍ، تشكّله المؤسسة الرأسمالية، التي فرضت سيادة عالمية، وخرجت من حربها الحضارية، تحمل اكاليل النصر والغار.. انتصرت المؤسسة المالية، في حربها ضد أخطر مدرسة فكرية واجهتها، فأي أفق بقى أمام الشباب ؟! ليس الشباب فقط، بل الجيل الذي وجد في الحرب ضد الرأسمالية ضالته المنشودة، وأمضي زهرة شبابه في هذه المعركة، التي كان يعتبرها مصيرية، هذا الجيل وجد نفسه الآن يعود إلى نقطة البداية، مجرداً من السلاح الفكري، الذي حمله لمدة تربو على القرن.. عاد هذا الجيل الآن، إلى نقطة البدء ليسأل نقسه.. " إلى أين ؟! ".

" أي طريق انتهج ؟ " عاد هذا السؤال ليطرح أمام العقل البشري التحدي الوجودي الأكبر، وخرج الأكاديميّون ليبشروا ببنىً، أو مناهج فلسفيةً بديلةً، لكن الفراغ بقى فراغاً، لأن المسألة اعتقاديةٌ، وليست أكاديميةً، فالمناهج الجديدة، لم تُعِد طرح الحلم القديم بالمدينة الفاضلة، من خلال رؤيةٍ جديدةٍ، بل اكتفت بمحاولة تقديم شرحٍ مغرق في الاكاديمية لمشكلة الحضارة، وفشلت من حيث بدأت، لأنّ

الحضارة ما كانت أبداً مسألة "علميةً"، خارجةً عن معتقد الفرد والجماعة، في الحلم بوضعٍ مثالي، يشكّل هدفاً مستقبلياً، يلهم سلوك الفرد اليومي، ويجعل منه واجباً أخلاقياً ملزماً. لقد شهد التاريخ دولاً كبرى، قامت دون هذا الحلم. لكنها لا توصف حتى من قبل الاكاديميين بأنها دول متحضرةٌ، ولم تترك على حقب التاريخ اللاحق بصمتها.. وإذا ما كانت الرأسمالية الآن، تشكّل وضعاً شبيهاً بهذا، فذلك لأن هذه المجتمعات فقدت حلمها، من خلال تحقيقه.. حيث كان الحلم بالديمقراطية السياسية، من خلال نموذجٍ حضاريٍ معينٍ، هو الحلم الذي تحركت الاجيال لتحقيقه،فحققته فاتحة، الباب أمام سؤالين.. هل هذا المثال الذي كنا نحلم به ؟ وأي درب ننتهج الآنّ ؟ فكانت حلقة الصراع الاجتماعي الذي انحسر، تاركاً السؤالين يعودان من جديدٍ، وبشكل أقوى.

لن تكون هناك اجابةٌ سهلةٌ جاهزةٌ، فمثل هذا النمط من الاجوبة لا يشكّل أجوبةً.. إن المسألة في بعدها الأول، تكمن في الرجوع إلى نقطة البدء: لقد شهد التاريخ سيادة الافق السياسي، على الافق الفكري، وقد حقّق هذا السياسي منجزات لا شك بها، لكن هل تستطيع العربة ان تقود الحصان ؟ إن الطاقة الدافعة لكل حضارةٍ، هي الحلم الانساني الاصيل، وإذا ما فقد الانسان ثقته بالحلم، وترك للتجربة المادية أن تقوده، وترسم له نهجه، بعيداً عن أي حلمٍ، بل أن

تقرر هذه التجربة، أي نموذج نحتذي، فهذا ما يجعل الوضع، كما لو كنا نضع العربة أمام الحصان.

الحلم هو الطاقة الدافعة، المحرك الذي يجعل الآلة تدور، الحصان الذي يقود العربة، من خلال حركته، ورؤيته للطريق.. وبدونه نجد أنفسنا أمام عربةٍ، لا فرق لديها بين درب سويٍ، وبين هاويةٍ قد تنحدر بنفسها إليها.. إنه المقياس المعياري لسوية الحضارة، أو انحرافها، وهو بالتالي صمام الأمان، وأداة التوجيه. على الافق الفكري - الثقافي - الأخلاقي، أن يرسم الحدود للسياسي، ويقرر له أي نهج يتخذ، فإذا ما فشل السياسي، عاد بخبرة التجربة، لينهل من معينه الثقافي، وليتعلم من جديد.. هذا هو الركن الذي ضيّعت فيه الحضارة ذاتها،ولن تجد ذاتها، إلا فيه. وهذا يقودنا إلى البعد الثاني للمسألة، ألا وهو البعد غير المباشر، والذي يشكل الخلفية العقلية للوضع الحضاري، والذي دفع بالسياسي ليتصدر واجهة الموقف: إنه يكمن في العلاقة بين العقل والتجربة. ففي مواجهة عصرٍ، أغفل فيه الانسان دور العقل، مكتفياً بطرح مسلماتٍ لا تقبل النقاش، سيطر المنهج العلمي التجريبي، من خلال دوره الريادي، طارحاً نفسه كمنقذٍ للبشريةوحضارتها، خالقاً النهوض الصناعي، والمجتمع الذي أفرزه، وما تشابك ضمن هذا المجتمع من تشكيلاتٍ. لكن ليس بمقدور التجربة، ان تحل معضلة الوجود، وتعبّيء الفرد بمفاهيم المثال

والواجب. فوجد الفرد نفسه أسير علاقاتٍ ماديةٍ ماليةٍ، وضحيّة غياب أيّة هدفيةٍ، تعطي معنىً لحياته.

عملاق الامكانيات هذا، يشبه انساناً تضخمت يداه وساقاه، وضمر عقله أنه يستطيع الوصول إلى أي شيءٍ، لكنه لا يعرف ماذا يفعل به. هذه هي حضارة العالم الآن. ولن يخرجها من مأزقها، سوى العودة إلى العقل النقدي، ليقوم من جديدٍ، مستفيداً من دروس التجربة، برسم صورة الحلم الانساني، ويقود الآلة الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية، بدل ان تقوده هي. هذا هو الاساس الذي تشاد عليه الحضارات.

قدرنـــــــا

الكتاب: صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي.

المؤلف: ساموئيل هنتنغتون.

المترجم: طلعت الشايب.

الناشر: سطور - القاهرة.

التاريخ: ط ٢، ١٩٩٩ .

في ١٩٦٦، صدر كتاب ساموئيل هنتنغتون " صدام الحضارات "، وأثار ضجةً عالميةً لم تتوقف حتى الآن. وفيما يلي الرد على ما ورد فيه من طروحات.

في البداية لا بد من التأكيد على ان تبدّل هوية الدولة، من قومية العرق أو اللغة أو الحدود الجغرافية، الى قومية الثقافة أو المبدأ أو الحضارة، وهو مفهوم سبق وان اعتمدته بشكلٍ او بآخر، بعض الانظمة الحضارية، يشكّل ارتقاءً بالدولة، وتأطيراً لدخول القرن الجديد، ولنكن متيقنين من ان الدولة القومية الليبرالية لن تشكل نهاية التاريخ، كما يطرح " فوكوياما ".

كذلك لا بد من تسليط الضوء، على الجزء الخامس من كتاب " صدام الحضارات "، والذي ينص على " ان بقاء الغرب يتوقف على الامريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية، وعلى الغربيين عندما يقبلون حضارتهم كحضارةٍ فريدةٍ وليست عامةً، ويتحدون من اجل تجديدها، والحفاظ عليها، ضد التحديات القادمة عن المجتمعات غير الغربية. ان تجنب حرب حضارات كونية، يتوقف على قبول قادة العالم بالشخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية، وتعاونهم للحفاظ عليها" (ص ٣٨).

ان مثل هذا التعميم جد خطيرٍ، لانه يطرح كمسلماتٍ فرضياتٍ

خاطئةً. أولاً: ان الهوية الامريكية أو الغربية، أخذت تصبح موضع تساؤلٍ، سواء من قبل أصحاب وجهات النظر الانفصالية، أو أصحاب الهويات الثقافية - الحضارية، وكذلك الغرب كله. ثانياً: ليس هناك حضارةٌ عامةٌ، وكل حضارة هي في ذاتها فريدة. ثالثاً: التحدي الأكبر لن يكون من المجتمعات، غير الغربية، أو بالتسمية الصريحة "الشرقية"، بل هو بذور ظلامٍ تتنامى داخل كل حضارةٍ. رابعاً: ليس هناك شخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية، فالسياسة الدولية تقوم على مفهومٌ الدولة القومية - الليبرالية، وهو مفهوم لن يستمر، وفوق ذلك فهو لا يسمح بالتعددية الحضارية، إذا ما اعتبرنا أن الحضارة، لا تتلخص في زيٍ قوميٍ خاصٍ لكل أمة. انها ساعة ترتقى فيها البشرية، وهناك من يخشى النقلة، لأنه لا يعرف، ولا يضمن نتائجها.

لكن الانتقالات التاريخية الحضارية تتم، حتى لو بقي الكثيرون يعجزون عن ضمان، أو حتى معرفة ما سوف تسفر عنه. دائماً هناك قوىً إيجابيةٌ، تقابلها قوىً سلبيةٌ، وأصحاب المصالح يبحثون عن ما يضمن استمرار مصالحهم، وهو بحث لا علاقة له بحركة التاريخ الحقيقية، والتي تتلخص في الصراع بين الايجاب والسلب.

ومن الضروري ان ندرك ان مناخاً فكرياً معيناً، لا يعني بالضرورة

نظاماً حضارياً سياسياً محارباً، اذ طالما شهدت البشرية هذه المناخات، دون ان يكون هناك تأطيرٌ سياسيٌ حقيقيٌ لها. وان تعدد المناخات، لا يفترض الصدام، ذلك أن بمقدور قوىً كبرى، أن تتعايش تحت سقف كوكبٍ واحدٍ، أو أن تتقاسم مناطق النفوذ.

إن المسألة هي تعدد المحاور، وبالتالي تعدد نقاط الاستقطاب، داخل كل منظومةٍ حضاريةٍ. ويمكننا بناءً على ذلك، أن نكون متيقنين، من ان عمليات الاستقطاب سوف تشتد وتقوى، وتتزايد حدّة الصراع، داخل المنظومة الواحدة، وبالتالي لا بد من نشوء أشكال للتحاور، والتلاقي، والتحالف، بين المحاور متماثلة الإنتماء، في المنظومات الحضارية المختلفة.

إنّ الصراع الاساسي، ليس بين بنىً فكريةٍ قديمةٍ عادت إلى الحياة، أو إلى اخذ دورها في الصدارة، بل الى الصراع الاساسي الواحد، بين قوى الحياة، وقوى الموت، داخل البنية الحضارية الواحدة.

ولا بد من أن يتقوى الاستقطاب الداخلي، ضمن كل منظومة على حدة، ولا بد من أن يفضى إلى التحالف، كصيغة توحد من خلالها قوى الحياة، صفوفها، ضد قوى الموت المضادة.

إنّ مثل هذا الاستقطاب، ومن ثم التحالف، لممارسة الكفاح ضد

العدو الواحد المشترك، والذي يقوم باستقطابه الخاص، ضمن المنظومات المختلفة، هو مسارٌ حتميٌ للقوى الحضارية، ويمكننا بكل ثقة أن تدعوه قدر البشرية.

وإذا ما تيقنا من حتمية التحالف، فسوف نختصر عقوداً من الجدل العقيم، والصراع الثانوي، اللذين يشدان قوى الحياة، بعيداً عن معركتهم المصيرية الواحدة. فليستعد رجال ونساء موسى، وعيسى، ومحمد، ولا بد من الاشارة هنا، الى اصحاب المعتقدات الأخرى سواء الروحية منها، أم المادية.

لقد اصبح الموت طريق خلاصٍ، اختار البعض أن ينتهجه، للتحرر من روابط الحياة. وأخذ العالم يشهد عروض الموت الجماعية، مرةً في أوروبا، وأخرى في امريكا، وثالثة في افريقيا.. هذه السمة لم تعد سمةً عابرةً، كما كان الامر في القرن المنصرم، بل سوف تشكل المحور المركزي، لهجوم قوى الظلام المقبل. ترى أي انسان تركت السياسة الدولية، في مواجهة قوى الظلام تلك؟ لم يعد الموت رمزاً معنوياً للشر، بل اصبح معتقداً خلاصياً يعتنقه الكثيرون. وأصبح الشيطان يُعبَد سراً وجهراً، وأصبح له مواقع على "الانترنت".

وإذا ما كان فهم الدين، بعد هذه القرون العديدة عصياً على

الاستيعاب، أقول بكل يقين: الدين ليس دين نبيٍ، ضد دين نبيٍ آخر. الرب واحد، والدين واحد، والرسل متعددون.

إنّ الحقيقة واحدةٌ، وعليه يجب أن يكون التحرك واحداً، وهذا لن يتأتى إلا إذا اقترن الوجود الموضوعي للحقيقة، بالوعي الذاتي الجمعي لها. وهذا لن يتم الا اذا افتحنا باب الحواز انه قدرنا فلنترك الصراعات الجانبية، ولنشرّع أبواب القلوب.. ولننبذ المجاملات التقليدية، ولنحل مغاليق العقول.

الغــــــزو

" هل الانسان هو المخلوق الوحيد في هذا الكون الشاسع ؟ "
سؤال حيّر العلماء، وقسمهم إلى فئتين: الأولى: تؤمن بوجود كائناتٍ حيةٍ غير أرضيةٍ، والأخرى لا تستبعد وجودها. وعلى ضوء ذلك كانت هناك محاولات للإتصال بهذه الكائنات، أبرزها ما حملته سفينتي الفضاء الامريكيتيين "بايونير ١٠ و ١١" في العامين ١٩٧٢ - ١٩٧٣، اللتين اطلقتا الى ما وراء المشتري، وزحل، وحملتا بطاقاتٍ تعريفيةٍ للانسان. لم تكن هذه هي المحاولة الوحيدة، بل تلتها محاولات اخرى، مثل تحميل "فويجر ١ و ٢" رسائل صوتيةٍ مسجلةٍ. بعد ذلك بخمس سنوات، حاول العلماء ارسال رسائل راديو موجهة الى "المجرة ١٣"، ولازالت المحاولات مستمرة .

هذا من ناحيتنا نحن، فماذا عنهم هم ؟ إن تقارير لا حصر لها ترد مختلف دوائر الشرطة، والصحف، والجمعيات، والمسؤولين العالميين، تشير الى أن الآلاف من البشر، قد تعرضوا لتجربة مشاهدة أطباقٍ طائرةٍ تزور الارض، ويعمد أهلها الى التحدث مع البشر، او اختطاف بعضهم، وربما اعادتهم فيها بعد. وأوردت الصحف، على سبيل المثال لا الحصر في ٣١ - ٣ - ١٩٩٣، مشاهدة العشرات من رجال الشرطة، والجيش الايرلندي وعدد كبير من المدنيين، لاطباق طائرة تحلق فوق المناطق الواقعة بين بريطانيا وايرلندا.

لازال الكثيرون غير مقتنعين بقصص مشاهدة تلك المخلوقات، الا انه في نفسِ الوقت ليس هناك من تفسيرٍ لتلك التقارير، التي ترد باستمرار، مؤكدةً وجودها، وزيارتها للأرض. وفي نفس الوقت، ليس هناك ما يمنع أن يكون هناك فعلاً مخلوقاتٌ أخرى.

إنّ مجرد فكرة الاطباق الطائرة، والحوادث الغريبة التي تقع بين فترةٍ وأخرى، لا يمكن أن تكون من صنع الخيال، والمشاهدات التي يحكيها أصحابها، لا يمكن أن تكون اختلاقاً أو وهماً. وكلها تأتي متكاملةً، ومتطابقةً، لتشير إلى وجود حضارةٍ أكثر تقدماً في النواحي العلمية، بحيث تمكنت من الوصول إلينا، قبل أن نتمكن نحن من الوصول إليها.

وهذا بدوره، يعيدنا إلى سؤال هامٍ وأساسي: "لماذا نفترض أن تلك المخلوقات صديقةٌ، ونرسل لها الرسائل التي تعرّف بالأرض، والإنسان، والحضارة ؟ أليس هناك احتمال أن تكون تعتبر نفسها أمةً أخرى، لها مصلحةٌ في استعمار الأرض ؟ ألا يكون سكان الأرض في مواجهة تلك الحضارات، كالهنود الحمر في مواجهة الغزو الأوروبي ؟ فجأةً، ودون سابق إنذار، كانت السفن التي تقل أعداداً كبيرة من المهاجرين، ترسو على سواحل أمريكا، وتنزل رجالاً مدججين بالأسلحة. أليس هناك احتمال أن يكون الوضع على هذا الوصف،

عندما نكتشف في المستقبل، أن قصص الاطباق الطائرة، وحضارات الكواكب الاخرى، لم تكن من صنع الخيال ؟ وساعتها لن نلقى " الرحمة " التي لقيها الهنود الحمر.

فليبحث منظرّو الحضارات، عن طبيعة الصراع، ما بين القوى الأرضية، وأهل الكواكب الأخرى، ليصلوا إلى نتيجةٍ مفادها، أنهم كيانٌ آخرٌ غريبٌ، يهدف لا إلى الصداقة، بل إلى الغزو. وليعيدو النظر في كافة الاستراتيجيات الحضارية، استعداداً للحرب الكونية المقبلة.

الفهـــــــرس

مقدمة ٧

عالم الحلم ١٣

أنت والنجوم ٢٣

الجاسوسة الشقراء ٣٣

ملكوت العقل ٤٥

صيد الرجال ٥٣

مؤتمر بكين ٦١

الهوية الجنسية ٦٩

الحقيقة ٧٧

العقل والايمان ٨٣

الأساس أولاً ٨٩

الأصولية ٩٥

العربة والحصان ١٠٧

قدرنا ١١٣

الغزو ١٢١

مطبعة الندى
تلفون 5620723
تلفاكس 5687231

إن ما كان يحتشد في هوامش السنين السابقة، سوف يحتل مكانه كمتنٍ للصفحات المقبلة، وما كان ينظر إليه كظواهر غريبة، أو غيرٍ مألوفة، أو غير شائعة، سوف يفرض نفسه لا كظواهر معروفة ومألوفة وشائعةٍ فقط، بل كأنماطٍ سيادية أيضاً.

Bibliotheca Alexandrina
0423439

دار النسر للنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن
هاتف ـ فاكس ٤٦٥٩٤٦٠